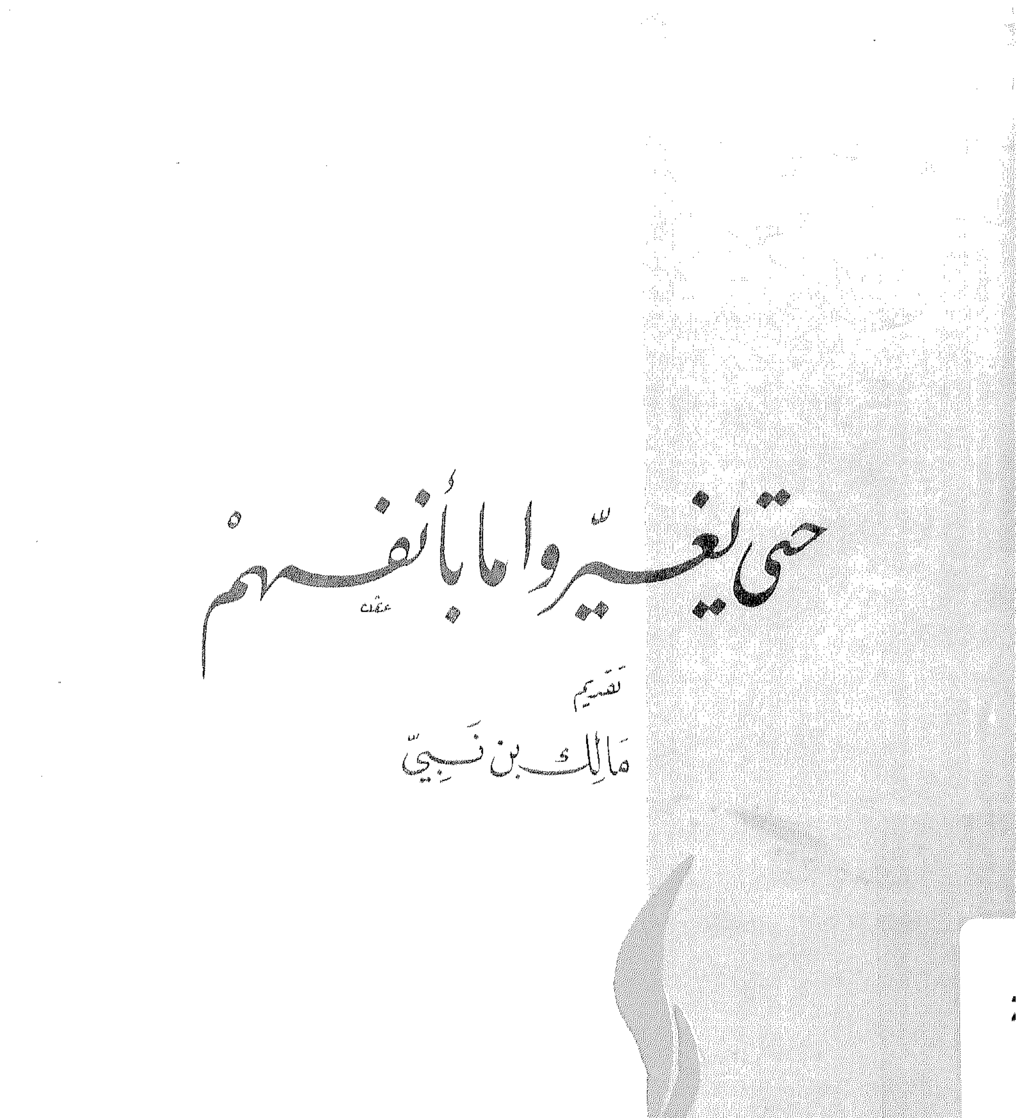


حتى يغيّروا ما بأنفسهم

تقديم

مالك بن نبي

جودت سعيد

أبحاث في سُنَن
تغيير النفس والمجتمع

حتى يغيّروا ما بأنفسهم

الطبعة الثامنة

١٩٨٩

جودت سعيد

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الله لا يغير ما بقوم
حتى يغيروا ما بأنفسهم

الرعد « ١١ »

ذلك بأن الله لم يك مغيرا
نعمة أنعمها على قوم
حتى يغيروا ما بأنفسهم

الأنفال « ٥٣ »

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ لله
وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا
إنَّكَ أنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ

مقدمة

الطبعة الرابعة

بسم الله .. الحمد لله . وسلام على عباده الذين اصطفى ..

سئلت عدة مرات بعد ظهور هذا الكتاب سؤ الاً محتواه :

إنك لم تبين سنن التغيير ، ولا كيف يتحقق التغيير ؟

إن هذا السؤ ال يحتوي ضمناً على التسليم بأن هناك سنناً لتغيير ما بالنفس . وهذا التسليم يعتبر خطوة هامة ـ مع اعترافنا بتفاوت درجاته ـ سواء ساهمت قراءتهم لهذا الكتاب بهذا التسليم ، أم لم تساهم .

وربما كان أهمّ ما يتوجه إليه هذا الكتاب ، الوصول إلى هذا الاعتراف ؛ لأن جهد الانسان لتحصيل شيء ما ، لا يحصل إلا إذا سلّم أولاً بإمكانه .

ويشتمل موضوع التغيير على جوانب :

١ ـ هل التغيير ممكن ؟ وإن كان ممكناً فهل له سنن ؟

٢ ـ كيف أغيِّر ؟ أوْ كيف يحدث التغيير ؟

٣ ـ ماذا أغيِّر ؟

هذا وقد كان هدف هذا الكتاب يتوجه إلى الموضوع الأول مباشرة ، وإلى الموضوع الثاني تبعاً ، وإلى الثالث ضمناً . وليس بين الموضوعين الأول والثاني فاصل دقيق ، لأن التسليم بإمكان التغيير لا يأتي إلا إذا لاحظ أمثلة في كيف يتم التغيير . . .

فإذا أمكن للانسان أن يلاحظ التغيير الذي يحدث في الواقع ولم يعرف سنن هذا التغيير ولا كيف يحدث . . . إن هذا يمكن أن يؤدي به إلى الجبرية والحتمية التي تستبعد سلطان الانسان على هذا التغيير . .

إن مثل هذا التسليم بامكان التغيير ، وأن له سنناً ، لا يؤدي إلى فاعلية الانسان ، إلا إذا شاهد الدور الذي يمكن أن يقوم به الانسان .

وللاجابة عن السؤال الأول : يكفي أن نلقي نظرة إلى واقع البشر لمشاهدة التغيير . ولعلّنا نسمع يومياً حديث الناس بشعورهم بالتغيير سواء في إمكانات الناس الاقتصادية والصناعية أو في التغيير الأخلاقي الذي يلاحظ بين الأجيال ، إذ أن هذا التغيير مشاهَد . . .

أما كشف أن هذا التغيير خاضع للسنن ، وأن الانسان له سلطان على ذلك ، فهذا يحتاج إلى جهد أكبر . وميزة ابن خلدون أنه لاحظ أن لهذا التغيير سنناً ، فقد تحدَّث عن الأجيال الأربعة في نشأة الدول وانهيارها ، ولكن ابن خلدون لم يلاحظ إمكان السيطرة على هذه السنن . وأما الكشف العلمي

بأن هذه السنن تخضع لسلطان الانسان بشكل من الأشكال ، فقد تنبَّه إليه في العصر الحديث انسان محور واشنطن - موسكو ، قبل غيره .

لقد كان جهدي كله في هذا الكتاب ينصبّ على بيان أن وظيفة تغيير ما بالنفس هي وظيفة الانسان . وتفسير الآية التي هي عنوان الكتاب ، كان يدور حول هذا الأساس .

والجواب عن السؤ ال الثاني هو : لم يكن الموضوع المباشر للكتاب أن نتحدث عن كيفية التغيير . . إلا أن الأمثلة التي ذكرت في الكتاب ، كلها مبنيَّة على هذا ، وأهمها الأمثلة المذكورة في فصل (العلاقة بين سلوك الانسان وما بنفسه) . وهذا الموضوع هو لبُّ المشكلة ، وهو تحصيل العلم وفتح الأسماع والأبصار لتحصيل أفكار موضوعية عن أسباب الأحداث والتغييرات ، وهو موضوع رؤ ية آيات الله في الآفاق والأنفس . . أي إحداث مواقف جديدة برؤ ية جوانب أعمق وأوسع للأحداث .

إن كل فكرة وخبرة تُقدَّم للانسان ، تؤ ثر في موقفه . وهذا هو التغيير ، فكل صورة تُعرَض على الأبصار ، وكل خبر يُعرَض على الأسماع . يهدف ولو ضمناً إلى تغيير موقف ؛ أو يُحدث بالفعل تغيير موقف . . . سواء كان هذا الموقف إيجابياً أم سلبياً ؛ وإنما يتجلى الحذق في إعطاء مواقف أسلم وأيسر .

وأما جواب السؤ ال الثالث ، فهو يشبه الإجابة عن سؤ الك : «ماذا أصنع من الحديد بعد أن أعرف صناعة

الحديد؟». وبالنسبة للمسلم؛ فإن كل أحلامه أن يغيرٌ وضعه ووضع العالم إلى الاسلام. فهو عموماً يعرف ـ أو يدَّعي أنه يعرف ـ جواب السؤ ال الثالث ، فهو يعرف ماذا يريد ، ولكنه يجهل كيف يحقق ما يريد . . . لذا عليه أن يتعلم ذلك ؛ وهذه الحاجة هي مصدر السؤ ال الذي ينبىء عن شعور القارىء بالحاجة إلى المزيد من الوضوح والبيان .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

جودت سعيد

٢٥ شوال ١٣٩٨هـ

٢٧ ايلول ١٩٧٨م

تقديم مالك بن نبي

إن المتتبع لأحوال العالم الاسلامي،يلاحظ أن الحركات التغييرية ، التي قامت فيه منذ عصر شيخ الاسلام ابن تيمية ، بل منذ عصر الغزّالي إلى عصرنا هذا لم يكتب لها النجاحُ إلا في بعض التغييرات السياسية ، كالتي حققتها دولة الموحدين في حدود قيامها بالشمال الأفريقي والأندلس ، حيث كان لها على الأقل دورُ المعطِّل لحركة التحلُّلِ التي ستؤدي إلى سقوط غرناطة .

أما الحركات التغييرية التي قامت في العصور المتوسطة على اجتهاد فردي ، مثل اجتهاد ابن تيمية فإن أثرها لم يبق إلا في التراث الاسلامي حيث تكوّن التَرسَانَةَ الفكرية التي لا زالت تَمُدُّ الحركات الاصلاحيةَ بالأفكارِ النَّمُوْذَجِيةِ إلى اليوم .

ولكن لم يكن نصيبُ الحركات التغييرية المعاصرة بأوفرَ من السابقات ، سواء كانت قائمة على الاجتهاد الفردي ، مثل دعوة جمال الدين الأفغاني ، أو على جهد منظم ، أو شبه تنظيمي ، مثل الحركة السلفية في الجزائر قبل الحرب العالمية الثانية .

وقد يتأتى تفسيرُ فشَلِ هذه الحركات التغييرية على أنها أتت في مجتمع لم يبق فيه مجالٌ للتغيير بالنسبة للحركات الأولى ، أو لم يُفسحْ فيه بعد مجال للتغيير بالنسبة للحركات المعاصرة . وهذا التفسير المرحلي يقنع من يؤمن بمراحل التاريخ

أي بالدورة الحضارية ، مثل مؤلف هذا الكتاب .

ولكن الأخ جودت سعيد لم يحاول هنا نقل اقتناعه الشخصي إلى القارىء ، بل نراه كأنه يحاول تخليصه من الحتمية التي يتضمنها هذا الاقتناع .

إن كلَّ قانون يفرضُ على العَقْل نَوْعاً من الحَتْمِيَّةِ تُقَيِّدُ تَصَرُّفَهُ في حدودِ القانون .

فالجاذبية قانون طالما قيد العقل بحتمية التنقل براً أو بحراً . ولم يتخلص من هذه الحتمية الانسانُ بالغاء القانون ، ولكن بالتصرف مع شروطه الأزلية بوسائلَ جديدة تجعله يعبر القارات والفضاء ، كما يفعل اليوم .

فاذا أفادتنا هذه التجربة شيئاً ، إنما تُفيدنا بأن القانون في الطبيعه ، لا ينْصِبُ أمام الانسان الدائب استحالةً مطلقة ، وإنما يواجهه بنوع من التحدي يفرض عليه اجتهاداً جديداً للتخلص من سببيةٍ ضيقة النطاق .

وكأنما الأخ جودت سعيد يَنْقُلُ هذه القضية من مَجَالِ الطبيعة إلى مجال التاريخ .

إنَّ من يؤمن بمراحل التاريخ مِثْلَهُ قد تستعصي عليه فكرة تطويع التاريخ لمبدأ التغيير ، مع هذا فهو يحاول تخليص مفهوم التغيير الاجتماعي من قيود السببية المقيِّدة ، كما تربطه بها النظرة الشائعة عند المؤرخين ، أمثال ج . أ . طوينبي ، الذين يرون أن الأشياء في التاريخ تسير طبقاً لسببية مرحلية .

وَالأَشياءُ تَسيرُ فِعْلاً كَذَلِكَ إنْ تُرِكَتْ لِشأْنها .

وإنما الأخ جودت يعلَم ، كمسلم متشبع بالثقافة الاسلامية ، أن التغيير ، أي التاريخ ، يخضع أيضاً لقانون النفوس .

فتصفية هذه المناقضة هي بالضبط محاولة الأخ جودت ، إننا نراه يتخذ كمحور لكتابه ، الآية الكريمة :

«إنَّ الله لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِم» الرعد - ١١ - ويتخذ من بعضها عنوان هذا الكتاب .

وبذلك تتغير وجهة النظرِ في سير التاريخ ، إذ أن المراحل التي تتقبلُ أو لا تتقبلُ التغييرَ حسْبَ طبيعتِها ، تصبحُ مراحلَ قابلةً كُلُّها للتغيير ، لأن الحتميةَ المرتبطة بها أصبحت اختياراً يتقرر في أعماق النفوس .

لقد أشادت أيضاً الحركاتُ التغييريةُ التي سبقتْ في العالم الاسلامي بهذه الآية كشعار ، ولكن يبدو أنها لم تضع في هذا الشعار سوى التبرك بكلام الله ، والتفاؤل به ، بحيث لم يكوِّن بيدِها في حقيقةِ الأمر وسيلةَ تغيير ، أو إذا شئنا قلنا : إنها وضعت في الآية الكريمة مُجَرَّدَ المحتوى الغيبي ، حتى أنه يمكننا القول بأن المفعولَ الاجتماعي للآية ، قد عُطِّل بهذه الطريقة .

ولعل اتخاذ الآية كمحور ، وكعنوان ، لهذا الكتاب يكون له - وفي هذه الظروف بالذات ، حيث تنتهي تجاربُ الجيل السابق - أثَرُهُ في تجربة هذا الجيل ، إذا قام بالتغيير الذي لا زال العالم الاسلامي ينتظره .

طرابلس ١٨ ربيع الاول ١٣٩٢ ٢ مارس ١٩٧٢

مالك بن نبي

مدخَل

في شباب العالم الإسلامي من عندَهُم استعداد لبذل أنفسهم وأموالهم في سبيل الإسلام ، ولكن قلّ أن تجدَ فيهم من يتقدم ليبذل سنين من عمره ليقضيها في دراسة جادة ، ليُنضِجَ موضوعاً ، أو يصل به إلى تجلية حقيقية ، مثلاً كمشكلة الانفصال الذي يعيشه المسلم بين سلوكه وعقيدته ، إذ كثيرمن الأسئلة التي تطرح ، ولا جواب شافياً لها ، مع أنه لا يمكن التغيير من وضع إلى وضع ، إلا بعد إجابة موضوعية عن هذه الأسئلة ، ولا يمكن ذلك إلا بعد الدرس والتحصيل .

والسبب في بطءِ نُموّ دراسات من هذا النوع ، هو أنه لم تكشفْ بعدُ قيمةَ الدراسةِ في الوسطِ الاسلامي ، الذي ظل وقتاً طويلا يرى ؛ السيفَ أصدق انباء من الكتب ، ولم يكن اتجاهه إلى أن الرأي قبل شجاعة الشجعان .

وظلَّت هذه الآراء المختلطة ، في ظلمات بعضها فوق بعض . ولم يروا العلاقة الصحيحة بينهما ولا الترتيب الطبيعي لها .

كما لم تُدرَسْ بعدُ في العالم الاسلامي شروطُ الايمان ، وليس معنى هذا أنهم لم يحفظوا أركان الايمان والاسلام ، ولكن نعني بشروطِ الايمان ؛ الشروط النفسية ، أي ما يجب تغييره مما بالنفس ، لأن هذا التغيير هو الذي ينتج ثمرات

الايمان ، أي شروط مطابقة العمل مع العقيدة ، وموانع إعطاء العقيدة ثمراتِها .

وإلى الآن يُنْظَر إلى بذل المال وبذل النفس ، على أنها أعلى المراتب ، دون مراعاةِ ما يجعل بذلَ المالِ والنفس مجدياً . إذ ليس الأمرُ مجرد بذلٍ وكفى ، لأن البذل لا يعطي نتائجه إلا بشروطه الفنية .

إن هذا النظر ، يساعد على إمكان أنْ يبذل الشاب المسلم ماله ونفسه ، بينما لا يتيسرُ له حبسُ نفسِه ، على بذل الجهد المتواصل للدرس والفهم .

وهناك سبب آخر ، وهو أن بذلَ المالِ وبذل النفس ، يمكن أن يتم في لحظة حماسٍ وتوتر ، ولكنْ طلبُ العلم لا يتم في لحظة حماس ، وإنما يتم في جهد متواصل ، يحتاج لنوع من الوعي كوقودٍ ، يجعل الاستمرارَ ممكناً .

نعم : كثير من الشباب ، في لحظةٍ من لحظاتِ الحماس ، يبدؤ ون أعمالاً ودراساتٍ في مواضيعَ مختلفةٍ ، ولكن بعد جلسة ، أو جلستين ، أو أكثر من ذلك ، يفترُ الحماسُ ، وينزل الملل ، ثم ينقطع ما بدأ من عمل ، كما ينطفىء المصباحُ حين يفقد وَقُوْدَهُ .

فلا بد من درس هذه النظرات المعوِّقة ، وكشفِ عوامل الغفلة عن الدراسة ، أو الانقطاع عنها بعد البدء ، لأن ذلك يحدث ضمن شروط معينة دقيقة ، تخفى عن النظرات العجلى .

وكذلك من الأمور الخفية الجلية معاً ، على شباب العالم الاسلامي ، خفاءُ ما يجعل مثلَ انتاج ، المودودي ، وسيد قطب ، وإقبال ، وغيرهم من الكتاب ، الذين يوصي المربون بدراسة انتاجهم الفكري ـ والتي على أساسها يُعَرض الاسلام مجدداً ـ ما جعل هذا الانتاج ، ينال هذه الحظْوة والتقدير ، هو أن وراء هذا الانتاج ، نوعاً من الدراسة والاطلاع ، الذي تجاوز المصادر التي تعود عليها الموجهون التقليديون ، مع ما يصحب هذه الدراسة من السير في الأرض ، ورؤ ية هذا العالم المعاصر الذي نعيش فيه ونتأثر به . وليس الذي جعل انتاج هؤ لاء في هذا المقام ، لأنهم كتبوا حاشية ، او تقريراً ، أو متناً للفقه التقليدي ، وانما لأنهم طرقوا شيئاً جديداً ، ليس في الاسلوب فقط ، بل بما يمس الواقع المتجدد ، بل ولانهم رأوا من آيات الآفاق والانفس ما شهدت لآيات الكتاب ، مما لم يتيسر لغيرهم .

ولكنَّ المشكلة ؛ ان لا نرى بدقة ، السبب الذي جعل في كتاباتهم إبداعاً جديداً ، وهو ، هذا الاطلاع والدرس الذي حصَّلوه . ونحن ، إذا كنا نريد ان ننمي هذا الاتجاه ، علينا ان نعرف ، من اين جاءهم ما امتازوا به ، لا ان نقف عند انتاجهم .

وقد لا يُلاحَظ من كتاباتهم ، ما يعطي لهم هذه السمة التي يمتازون بها ، وقد يكون من أسباب خفاء ذلك ـ مع تفاوت درجة الخفاء ـ طمأنة القارىء بالأصالة . إلاَّ أنَّ الحق

بذاته ، أينما كان ، له أصالته الخاصة التي تعلو كل أصالة .

وكذلك من المفارقات ، أن نتطلع بشوق إلى تغيير الواقع ، دون أن يخطُرَ في بالنا ، أن ذلك لن يتم ، إلا إذا حدث التغيير قبل ذلك ، بما بالأنفس . ونحن مطمئنون إلى ما بأنفسنا ، ولا نشعر أن كثيراً مما فيها ، هو الذي يعطي حقَّ البقاء لهذا الواقع الذي نريدُ أن يزول ، ونحن نشعرُ بثقلِ وطأتِهِ علينا ، ولكن لا نشعرُ بمقدارِ مايساهم ، ما في أنفسنا ، لدوامِهِ واستمراره .

فهذا مايريد القرآن أن يعلِّمهُ للبشر، في تفسير ما يحل بهم ، حين يلحُّ في إظهار : أن مردَّ المشكلة ، إلى ما بالنفس ، وليس من الظلم الذي يحيق بالانسان من الخارج ، بل ، من الظلم الذي يُنْزِل له الانسان بنفسه . وهذا هو لبُّ التاريخ ، وسنَّة الاجتماع ، الذي يقرره القرآن ، وبإغفاله تُظلِم الحياة ، وتنشأ الفلسفات المتشائمة الخانعة ، أو الفلسفات المتسلطة المارقة .

ومن أكبر الظلم الذي ينزلُه الانسانُ بنفسه ، أنْ لا يرى العلاقة التسخيرية ، الموجودة بين الانسان والكون والمجتمع «الآفاق والأنفس» ، فيهمل نفسه ، ولا يضعها في المكان الذي يُسَخِّرُ الأفاقَ والأنفْسَ على أساس السنن المودعة فيهما ، وبناءً على هذا يمكن أن نقول :

إن العقل يمكن أن يتخذ أحد موقفين إزاء المشاكل ؛ إما أن يفرض فيها أنها تخضع لقوانين ، وبالتالي يمكن أن تخضع

المشكلة للسيطرة عليها وتسخيرها ، وإما أن يفرض فيها أنها لا تخضع لقوانين ، أو لا يمكن كشف قوانينها . وبين هذين الموقفين ، مواقف متعددة ، يتفاوت فيها القرب من أحدهما والبعد من الآخر .

إن لكلٍ من الفرضيتين نتائج عملية ، تظهر في مواقف البشر وسلوكهم ، بصور متفاوتة ، على حسب الخضوع لأحد الموقفين .

وعجز المسلمين أن يعيشوا وفقاً للعقيدة الاسلامية ، مشكلة لا يحتاج إثباتها الى بذل جهد كبير .

ولكن بعد التسليم بأنها مشكلة ، يبقى أن يظهر : أي الموقفين يتخذ المسلمون إزاءها ؟ هل يتخذون الموقف الأول ؟ بأن يفرضوا وجود قوانين تخضع لها المشكلة ، وبكشفها يمكن السيطرةُ عليها وتسخيرها ؟ أم يعتقدون أن المشكلة لا تخضع لقوانين يمكن أن يكشفها الإنسان ، وبالتالي لا جدوى من جهد الانسان للبحث عن هذه القوانين ، لأن القوانين التي تخضع لها المشكلة ، حسب اعتقاد البعض ، «تعمل في حياة البشر بطريقة سحرية خارقة ، غامضة الأسباب» .

إنَّ طرح هذا الموضوع بصيغة تجعَله تحت وعي المسلم ، يفيده لأن يحدد عن وعي موقفه من المشكلة ، ويخرج من الموقف الغامض الذي يتخذه . وفي أحيان كثيرة ، يختلط الموقفان بصورة مشوشة في ذهنه ، بحيث يشلُّ أحدهما مفعول الآخر ، فيبقى الموضوع في غموض وشلل .

إن لسلامة النظرية ، أثراً هاماً في الوصول الى الحل ، بل يتوقف الحل ، على صحتها ومقدار وضوحها .

وهدفي من هذا البحث ، هو محاولة إلقاء أضواءٍ على الموضوع ، نعتقد أن تكون لصالح الموقف الأول . مع ادراكنا ضآلة ما نسهم به .

إنَّ المسلم حين يسأل ـ ويلح في سؤال لا يمل من طرحه ، كأنه اللازمة التي يرددها في مطلع وخاتمة كل بحث وحديث ـ عن المشكلة : ماذا علينا أن نعمل ؟

إنه حين يسأل هذا السؤال ، يحمل معه ضِمناً ، موقفاً غامضاً عن موقفي العقل إزاء المشاكل . فهو لم يحدد بعد بوضوح ، عقيدته الموقفية . هل يعتقد أنَّ المشكلة لها سنن ؟ وهل يمكن كشفها ؟ وهل يمكن على أساسها السيطرةُ على المشكلة وتسخيرها بجهد الانسان ؟

إننا لا نتحدث عن الذين يجيبون سلباً عن هذه الأسئلة ، مع اعترافنا بوجودهم ، وأنهم يمثلون مركز الثقل في المشكلة ، وهم عامة الأمة ، الذين ينتظرون المهدي أو أشراط الساعة ، وقد رَسَخَ في أذهانهم أنَّ المشكلة : ليس لها من دون الله كاشفة ، وأنَّ سعي العالمين ضلال .

ليس حديثُنا عن هؤلاء، وإنما عن الذين خرجوا من هذه الحال ، ولم يُثبِتوا أقدامهم بعد ، ولا يجيبون عن تلك الأسئلة بالسلب ، مهما تفاوت ما يحمل الجواب من معنى الايجابية .

إن الذين لا يرون أن للمشكلة قوانين ، أو يفرضون لها

تفاسير خاطئة ، لا يمكن أن يصلوا الى نتائج . فعدم اعترافهم بالقانون لا ينفي القانون ؛ وإنما يمنعهم من السيطرة عليه وتسخيره ، ويجعل منهم أداة يلعب بها الآخرون الذين علموا القوانين الصحيحة .

إن القدرة التسخيرية التي يمنحها امتلاك ناصية القانون ، تتبين بمقارنة المشكلة في مجالين :

المجال الأول :

مجال القوانين التي يخضع لها الكائن الحي ، والموقف الذي يتخذه من يعرف هذه القوانين ويسيطر عليها ، إزاء مشكلة اختلال توازن الكائن الحي . إنَّ الطبَّ ، بما وصل إليه في كشف قوانين الصحَّةِ والمرضِ العضوي للكائن الحي ، مكَّن الطبيبَ من السيطرة بواسطة هذه القوانين وتسخيرها ، فالذي يعلم هذه القوانين يمكِنُه ، باستخدام وسائل مختلفة ، من مقاييس الضغط ، والحرارة ، والنبض ، والتنفس ، ومختلف التحاليل ، التي يكشف بها مقدار الخلل الذي حدث في الجسم من النقص أو الزيادة في النِسَبِ التي تحفظ توازنَ الكائن الحي ، هذا التناسب الذي يجعله سليماً معافى . إن من يعرف ذلك ، يمكن أن يتخذ إزاء هذا المرض إجراءاتٍ فورية ، في الدواء والغذاء والعمل ، وأخرى مرحلية لإعادة التوازن إليه. إنَّ الذي يمكن أن يقوم بمثل هذاالعمل هو مَنْ يعرف القوانين التي تخضع لها سلامة الكائن الحي . بينما إنسان آخر لا يعرف هذه القوانين ، ولا كيفية التدخل لاعادة

التوازن ، فهو ينظر الى المريض ويرى آثار المرض ، من الآلام والعجز عن الحركة ، وعن القيام بمهمات الحياة اليومية ، بينما يرى هذه الآثار واضحة مؤلمة ، لا يستطيع أنْ يتدخل فيها ، ولا يمكنه أن يدرك مقدار الخطورة ولا الوسائل القريبة أو البعيدة التي ستنقذ هذا المريض أو تحطمه ، إنما يملك فقط ، أن يذرف الدمع بغزارة على آلام من يحب . . . وهذا واضح في واقع الحياة .

المجال الثاني :

فاذا انتقلنا من هذا المجال ، الذي ربما كان إدراكه أقرب منالاً ، إلى المجال الثاني الذي يتصل بالمشكلة التي نبحثها ، مشكلة المجتمع الذي تبدو عليه آثارُ المرض الاجتماعي ؛ من الانحلال ، والتنازع والتدابر ، والعجز عن القيام بالواجبات الاجتماعية المشتركة ، ظهر لنا أن الجسم الاجتماعي ، أو كِيان الأمة ، يخضع لقوانين يمكن كشفها وتسخيرها لصالح المجتمع . وقد قلنا سابقاً ، إن مشكلة عجز المجتمع عن أن يعيش وفقاً لعقيدته لا تحتاج لإثبات . وعلامةُ المرض الاجتماعي ظاهرة عليه يراها كل فرد ، كما يَرَى آثارَ المرضِ الجسمي على المريض ، ولكنْ لا يعرف القوانين التي يخضع لها المرض في كلا المستويين الاَّ الاخصائيون .

لهذا نرى غالب الناس ، يشكون من انحلال قوى المجتمع ، وعجزه عن القيام بمهمته ، كما يمكن أن يَرَى كلٌّ

فرد علائم تدهور الصحة في لون البشرة ، وامتعاضات الألم . والناس وإن كانوا يسعون عند الاصابة بالأمراض العضوية الى الأطباء ، إلاَّ أنهم لا يجدون بالمقابل أطباء أمراض المجتمع ، الذين يمكن اللجوء إليهم للقيام بالمعالجة ، على أنهم إن وَجَدُوا ، فقدرتهم على المعالجة ، كقدرة أطباء المرض الجسمي قبل كشف قوانين الأمراض ، الذين إن لجأ إليهم المريض فلن يجد فائدة عندهم .

إن هذه المشكلة ، هي الداء الذي أعيا الطبيبَ المداوي ، لا لأن الداء غير قابل للشفاء ، وإنما المداوي هو الذي أعياه أن يعلم القوانين التي تسيطر على سلامة المجتمع . . . ومن ثم ينسبون المرض الى القضاء والقدر ، كشأنهِم في كل الأمور التي لا يعرفون سننها . بينما لا فرق في خضوع كل المشاكل للقضاء والقدر ، سواء عُرِفَتْ أسبابها أم لم تُعْرف .

إنَّ هذا الخلْطَ في هذه الأمور ، هو الذي جعل قول المعري كالمثل السائر :

كم عالمٍ عالمٍ تلقاه مفتقراً
وجاهلٍ جاهلٍ تلقاه مرزوقاً
هذا الذي ترك الأفهامَ حائرة
وصيرَّ العالِمَ النحرير زنديقاً

ولا شك ، أن تركيب المجتمع ، وغنى فئة فيه وافتقار أخرى ، أمور خاضعة لقوانين وسنن اجتماعية ، إذا خَفيت عن عيني الانسان اشتبهت عليه الأمور ، وتداخلت في ذهنه المشكلات ، وظنَّ أن القضية فوضى لا ضابط لها ، ولا عدل فيها ، ولا تصدر عن حكيم عليم ، فيكون ذلك سبباً لهرطقة وزندقة من نَظُنُّهُ عالماً نحريراً .

إنَّ الذي عَرَفَ قوانين المجتمع ، يمكن أن يستخدم وسائل مختلفة لقياس صلابة المجتمع ، وسلامة شبكة علاقاته ، كما يمكن أن يستعين بمختلف التحاليل التي يجريها على الأحكام التي يصدرها المجتمع على تفسير الأحداث ، ليحدد نوع الخلل الذي يعانيه المجتمع . إنَّ الخبير بسنن المجتمعات ، يمكن أن يدرك ، ويتخذ إجراءات في تغيير نظرات المجتمع ، ويفرض نظام الحمية ، على الأغذية الفكرية التي يتناولها ، لما تحمل هذه الأغذية من جراثيم فكرية تعطِّلُ قوى المجتمع وتماسكه . وكما يمكن استخدام الحجر الصحي لايقاف الأوبئة في مستوى المرض الصحي ، يمكن استخدامه في مستوى المرض الاجتماعي . كما يمكن إعطاء اللقاحات والمناعات الفكرية ضد أفكار مرضية .

فانَّ ما يُرَى ، من تَدَابُرِ المجتمع ، وعجْزِهِ عن التعاون في أصعب الظروف ، واتهام أفرادهِ بعضهم بعضا بأنواع التهم ، وبحث الكبار فيه عمن يحمل عنهم وزر فشلهم ، وعدم شعورهم بوخز الضمير حين يتخلفون عن أداء

الواجب . . والكسل الذي يعم الجميع عن السعي لزيادة المعرفة ، والإعراض عن الاستفادة من أحداث التاريخ ؛ كل هذه أمراض إجتماعية ، لا تقل خطورة عن الامراض العضوية ، التي تصيب أجسام البشر . إن هذه الأمراض الاجتماعية ، تصيب عقول الناس فتعطلها ، وعواطفهم فتبلدها . ومصدر تلك الأخطار ، البيئة الملوثة بالأمراض الفكرية المتوطنة ، القديمة منها والطارئة .

إن القرآن الكريم ، يذكر المرض في القلب في عدة مواضع ، ولكن لا يذكره على أساس أنه مرض عضوي في جسم الفرد ، وإنما على أساس أنه مرض اجتماعي في نفس المجتمع . وحين يذكر مرض القلب ، لا يعني به ما يمكن أن يصاب به من روماتيزم ، أوتسارع ، أو انسداد الشريان الذي يغذي القلب ، مما يحدث الموت المفاجىء بالسكتة القلبية ، وانما يقصد القرآن بمرض القلب ؛ مرضا «فكريا» يصيب الانسان في علاقته بالمثل الأعلى ، مما يجعل الشخص عاجزاً عن القيام بأداء وظيفته الاجتماعية في جسم الأمة .

ان ضعف القلب ، يجعل الجسم عاجزاً عن مواجهة أي عمل يتطلّب جهداً ، كذلك الضعف الذي يصيب مراكز الفكر في المجتمع ، يجعله لا يقوى على مواجهة أية مشكلة تتطلب بسطة في العلم والجسم .

والآن : إن معنى القانون والتسخير ، الذي يمكن إدراكه في مستوى سلامة الجسد ، يجب أن ينتقِلَ إلى مستوى

سلامة المجتمع .

ويقول الكاتب الجزائري مالك بن نبي ، في هذا الموضوع في مستوى الآلة المادية : (فقد تعودنا بالنسبة الى الآلة على الواقع القائم في أن عملها لا يمكنه أن يتحقق إذا نقصتها (حزقة)أو صامولة . ولكننا لم نُقرَّ في أذهاننا نفسَ القاعدة بالنسبة إلى العمل البشري ، بينما يبدو جيداً في حالات معينة . ان الانسان تنقصه هذه الصامولة (الحزقة) بالذات حيثما فقد نشاطُه ، تَمكُّنَه من الأشياء ، فكان نشاطاً رَخْواً ، أو هو لا يندمج بطريقة منتظمة مع النشاط المشترك للجماهير)[1]

هذا تشبيه ، يسوقه الاستاذ مالك ليوضح فيه ، أن النشاط البشري يخضع للسنن ، وان اختلفت هذه السنن عن سنن الآلة المادية . وهو تشبيه آخر يعضد تشبيهنا المجتمع بالكائن الحي من حيثُ سننُ مرضِهِ ، وسننُ شفائِه . وأحب الآن أن أذكر أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الموضوع لنبين أن هذا التشبيه ليس من بِدَعِ العصر الحاضر .

بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم ، ما كان أحرصه على المسلمين وأرأفه بهم ، حين كان يبدىء ويعيد لِيُقِرَّ في الأذهان ، التشابه بين المادة والحياة والمجتمع ، من حيثُ خضوعَ كلٍ منها للسنن ؛ في السنن التي تفسر تماسك الجسم الصلب ، والسنن التي تبقي الكائن الحي في الوضع السليم ،

---

(١) آفاق جزائرية ، ص ١٥٣ ، طبع الجزائر ١٩٦٤م .

والسنن التي تحمي المجتمع من الانحلال . فيذكر عليه الصلاة والسلام المثل المادي ، ويقرن به المثل الاجتماعي ثم يذكر المثل العضوي فيشبه به العلاقة الاجتماعية .

يقول صلى الله عليه وسلم في التشبيه الأول: «ان المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضا . ثم شبك بين أصابعه» .

ويقول في التشبيه الثاني : «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد اذا اشتكى عضواً تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى» (١) .

ان معرفة السنن التي تشد البنيان بعضه الى بعض ، هي التي تمكن من بناءٍ يبقى على مرِّ الزمن . ان مهندس البناء هو الذي يعرف مقدارَ التماسك لكل مادة وطاقةَ تَحَمُّلِها ، وكذلك يعرف مايحتاج بناءُ الجسورِ والأنفاقِ والأبراج. . . اذ لا يمكن أن يقوم بناءٌ، بناهُ من يجهل سننَ تماسكِ البنيان ، وقوانينَ الضغط ، والمقاومة . فكما يمكن لمهندس البناء أن يعرف خطورة نوع التداعي الذي أصاب البناء ، ويمكن أن يعرف أسبابه وما ينبغي أن يقوم به من اصلاح ، كذلك مهندس بناء المجتمع ، اذا نظر الى المجتمع فإنه يعرف ما يتمتع به المجتمع من تماسك ، وما يطرأ عليه من خلل ، وما يتعرض له إذا استمر اهماله من خطر السقوط في أجل محدود :

«لكل أمةٍ أجلٌ إذا جاء أجلُهم فلا يستأخِرون ساعةً ولا

---

(١) الحديثان في البخاري .

يستقدمون» يونس - ٤٩ .

هذه المقارنة إنما تهدف لتقريب الموضوع ، وهذه طريقة القرآن الكريم والحديث فانهما يذكران المثل المعروف عند الناس ليقارنا لهم أن ما جهلوه شبيه بما عرفوا سننه من حيث الخضوعُ للسنن :

«وتلك الامثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون» العنكبوت - ٤٣ .

والرسول عليه الصلاة والسلام ، يضرب مثلا آخر تمتزج فيه السنَّة المادية بالسنَّة الاجتماعية ، في مَثَلِ السفينة وركابها ، وعلاقة سنن المركب بسنن المادة تارة ، وبسنن البشر تارة أخرى . هذا المثل يذكره الرسول صلى الله عليه وسلم ليبين أن للمجتمع قانوناً يترابط به ليحميه من الغرق .

من السهل إمكان إدراك نتائج الخرق الذي يحدث للسفينة ، ولكن ليس بمثل هذه السهولة امكان ادراك نوع الخرق الذي يحدث للمجتمع . إن هذا علم ، وأي علم ! وبمقدار ما هو علم ، انه ظن ، وأي ظن عندنا نحن الآن ، كما يقول إقبال :

كل شيء فيه قانون سرى

كيف في هذي المعاني يمترى

ولئن ذهب وقت المعجزات ، الا أن العلم قد تقدم لخدمة الانسان ، ولو علمنا نحن المسلمين كيف نستفيد من العلم في خدمة إيماننا لأدركنا ، أن نتائج استخدام العلم أجدى

من وصْفنا الاسلامَ أنه دين العلم ، لا سيما أننا بعد ذلك لا نثق بالعلم بل نخاف منه ، بل نتهمه .

ولو عرفنا التعامل مع العلم لوجدنا أنه يدعم ما نهدف إليه باسلوب أرقى ، ونتائج أنفع من الحرص الطفولي لرفع شأن الاسلام . إن الغيورين يبكون على الاسلام الذي أخذ أهله ينحسرون عنه ، كما يبكي المحب الجاهل على المريض الذي اشتدت عليه وطأة المرض ، بينما كان نفعُه لهذا المريض أجدى لو سعى ليعلم طريقة علاج المرض ، ذلك أن الله ما أنزل من داء إلا وأنزل له دواءً ، وما يقال في مجال أمراض الجسم يقال في مرض النفس ومرض المجتمع .

علينا أن نتعلم ما العلم ؟ حتى نميز ما هو علم مما ليس بعلم بدلا من أن نقول إن العلم لا يوثق به . ولكن الطريق التي تُوصِّلنا الى ما نميز به العلم عن غير العلم أصعب مسلكاً . وقولنا عن العلم إنه لا يوثق به أسهل كلفة ولا يحوجنا الى عناء ، ولكن نتيجة هذا السهل صعبة ، ونتيجة ذلك الصعب أقوم سبيلا .

إن اعتناق الموقف الأول من المشاكل يعطي نتائج معينة ، ويتدخل في سلوك الانسان . إن من يعلم أن المشاكل خاضعة للسنن ، ويمكن كشفها ، يتسم سلوكه بالايجابية والإقبال على العمل بجد ، بينما يظل الآخر الذي أنكر أوجهل السنن في حيرة ، وإذا بدأ يعمل ، يمكن أن يتركه في منتصف الطريق ، ويمكن أن يصرفه عنه أي صارف تافه ، ويسهل

عليه ذلك ، لأنه لا يشعر أنه ترك أمراً يتوقف حلُّ المشكلة عليه ، فهو لم يتعود حلَّ المشاكل وإنما يراها معلقة ومُزْمِنة . وكلما تعود الانسان التعامل مع السنن ، ازداد ثقة وطمأنينة .

والانسان الذي يواجه مشكلة ، ويعتقد بإمكان حلها ، هو إنسان يؤمن بالتغيير . والتغيير هو انتقال من حالة لا يرضى عنها الى أخرى خيرٍ منها ، وهذا الانتقال ، يخضع لقانون يتخذ علاقة بين الهدف والوسيلة ، وطاقة الانسان . وبين هذه الأركان توازن . ويجدر بنا أن نطبق هذه القاعدة على المجتمع الاسلامي ، متذكرين ، أن هدف الانسان في هذا المجتمع استئناف حياة إسلامية ، ووسيلته كل ما يمكن أن يصل إليه فكره ويده .

إن العلاقة بين هذه الأركان تخضع لاعتبارات متعددة تقربها من الواقع أو تبعدها عنه . فلا بد من كشف هذه الاعتبارات ، وجميع أعمال البشر تخضع لهذا القانون ، من أدنى ما يسعى إليه الفرد في نشاطه اليومي ، الى مستوى إقامة المجتمع الصالح الموحَّدِ في العالم كله .

ومن الاعتبارات التي تفسد العلاقة ، ظن أن النجاح فيه يخضع لقوانين «تعمل في حياة البشر بطريقة سحرية خارقة غامضة الأسباب» كما يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله في كتابه (هذا الدين) . إن مثل هذه النظرة تفسد العلاقة بين الأركان المذكورة آنفاً . هذا اعتبار معوق يتعلق بنظرة الانسان الى نفسه نظرة سلبية ، وكذلك فيما يتعلق بالوسيلة التي تمكنه من

الانتقال من الموجود الى المقصود ، فإن المسلم يقع في متاهة حين يريد الانتقال ، فلا يبصر تعلق الموجود بالمقصود ، ولا يرى أن الموجود هو الذي يوصل الى المقصود ، فهو يحقرُ الوسيلةَ الموجودة ويضع من قيمتها ، وأما الوسيلة التي يتوق إليها ، ويرى لها الفائدة والجدوى فإنه لا يتمكن منها [1] ، فالموجود غير مفيد في نظره ، والمفيد غير متوفر لديه . إذن لا فائدة من العمل فيما لا يفيد أو فيما هو غير متيسر . ولذا فهو في إجازة مفتوحة حتى تتدخل القوى الخارقة الغامضة الأسباب . بينما العقل المتبصر لم يعد يرى غموضاً في الأسباب حتى في مستوى إنزال الملائكة للتأييد والنصر ، إنه يخضع لقانون وسبب واضح وهو اتخاذ الرب إلهاً والاستقامة منهجاً :

«إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألاَّ تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنَّة . . .» فصلت - ٣٠ -

---

(١) يقول الاستاذ مالك في حديثه عن السياسة والبوليتيكا :

«والفرق كبير بين المصطلحين ، إذ هو الفرق بين الصدفة والعاطفة ، وبين التوجيه المحدد المستقى من التجارب الإنسانية خلال التاريخ . وما هذه السياسة الخبيثة (البوليتيكا) التي اتبعها الزعماء سوى خلط الممكن بالمستحيل ، وترك الأهداف التي تسهل إصابتها بوسائل مباشرة ، إلى ما لا يمكن الوصول إليه مهما تعلقنا بوسائل خيالية» . من كتاب وجهة العالم الإسلامي ، ص ١٠٨ .

إن النظرات الخاطئة التي تعرقل الحركة ، وتوقف السير ليست كبيرة ضخمة ، ولكنها دقيقة لا يقِفُ الفكرُ عندها ، بل يتجاوزها قفزاً دون أن يلمَحَها . ولكن هذه الغفلة اليسيرة توقف سيرَ التاريخ ، كما يقول محمد إقبال :

لحظـةً ياصاحبـي إنْ تَغْفُلِ ألفَ ميلٍ زاد بُعْـدُ المنزلِ

فالانسان يتجاوز الخطأ الدقيق في حركته المهتاجة الشغوفة الى الهدف ، ولكن الصدمة تكون محيِّرةً الى درجة كبيرة ، مما تجعل الصفوة تقابل مثل هذا الموقف بقولهم : (أنَّى هذا ؟) آل عمران ـ ١٦٥ ـ .

فكما لم يلاحظ الانسانُ الشروطَ الدقيقة الواضحةَ والخفيةَ بآن واحد ، أثناء هجمته ، فكذلك يعجز أن يلاحظها في مأساة تحطمه بعد أن يُخفق ، فلا يظن أن ذلك الذي لم يلمحه هو سبب هذا التحطم الشديد ، أو البعد الكبير عن الهدف .

إن السلوك الذي ينتج عن مثل هذه الخبرات ، حين يفقد مراعاة السنن ؛ سلوك يتسم بالحَذَر والحَيْرَة ، وعدم الثقة ، والعجز مع الحقد . بينما إدراك سنن الانتقال من الموجود الى المقصود بصورة محددة ، يقي الانسان من هذه المضاعفات ، فلا يجعله يظن بنفسه ما لم يؤهِلْها له ، ولا يحاول أن يستر عجزه ، وإنما يسعى بكل جد الى استكمال ما ينقصه .

واليوم حين أعرض هذا البحث في مشكلة التغيير من

خلال قوله تعالى :

«إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» الرعد - ١١ -

أكتب وأنا معتقد أن إدراك المسلم لهذه القضايا ، يجعله يقبل على ما بين يديه من وسيلة موجودة بكل صبر وجد واستمرار ، دون أن يتمكن أحدٌ أن يصرفه عن غايته ، لأنه يعرف ماذا يعمل ، وأين يؤدي عمله . وكلما اكتسب من سعيه موجوداً جديداً لم يكن عنده ، زادت طمأنينته ، وخرج من الحَيْرَةِ التي يعيش فيها ، حيث كان ينتقل من سراب الى سراب ، ويقضي شبابه في هذه الحركة ، التي تشبه حركته من أصابته لوثة ، ثم يركد ساكناً بعد أن يئس دون أن يكون قد خطر في باله أن الدراسة الصابرة تفتح أبواباً للعمل لا ينتبه إليها عادة . ويقول في هذا الأستاذ مالك بن نبي :

«وبعض المسلمين الذين ما زالوا يحسون بقلوبهم بالمأساة ، ولكن ليس لديهم ما يكفي من الصبر والأناة لدراستها ،هؤلاء يترجمون دائماً عن المأساة قائلين : (إننا لم نعد مسلمين إلا بشهادة الميلاد . إنهم ليقررون حقيقة ، ولكن ربما فعلوا شيئاً أكثر فائدة لو أنهم لاحظوا ملاحظات أولية في وسطنا» (١) .

أنا أعتقد أنه إذا أدرك المسلم سنن المشاكل سيخرج من هذا الإدراك بالسلوك الجاد بدل التشتت الذي يعيشه .

---

(١) ميلاد مجتمع ، ص ١٣٤ ، طبع القاهرة ١٩٦٢ .

سُنَّةٌ عَامةٌ للبَشرِ

إن السنة الموجودة في الآية ، سنة عامة تنطبق على كل البشر ، وليست خاصة بالمسلمين ولا بغيرهم وإنما هي عامة .

ولكن المسلم عادةً ، بشعور منه أو لا شعور ، وبمقدار متفاوتٍ في الوضوح ، يريد أن ينظر الى الأمور بشيء من الخصوصية .

ولقد صادفني مراراً حين كنت أحاول أن أتناول مشكلة المسلمين أن أواجهَ بقولهم : إن هذا الأسلوب الذي تحاول أن تبحث به الموضوع ينطبق على غير المسلمين أيضاً . فأقول نعم .

وبناء على هذه الخبرة ، أشعر بحاجة لأن أوضح هنا ، أن القاعدة الموجودة في هذه الآية تشمل كل الناس ، بدليل أن كلمة (قوم) في الآية لم تأت مخصصة بقوم معينين ، وإنما هي لكل قوم ، ومجيئها نكرة في الآية يدل على هذا .

فمضمون هذه الآية ينطبق على كل البشر أجناساً وأدياناً ، الأبيض والأسود ، والمسلم والكافر.

لكن حين يسأل المسلم ويقول : إن هذا الأسلوب في معالجة المشكلة يعم غير المسلمين .

إن هذا السؤ ال ليس سؤ الاً فارغاً ، بل يحمل وراءه

نظراً وعقيدة وفكرة ، فكأن المسلم بهذا السؤال يبصر جانباً لم يكن يبصره من قبل، ويبرز عنده احتمالٌ لم يكن وارداً لديه سابقاً ، فيخرج بهذا من نظر الخصوصية الى قاعدة عامة تشمل كل البشر ، ومن ضمنهم المسلمون .

ولكن المسلم لا ينظر عادة ، الى مشكلة المسلمين بهذا المنظار الذي يجعل المشكلة الإسلامية خاضعة لسننٍ عامة تشمل البشر جميعاً . فهو يرى أنه ينبغي أن تكون مشكلة المسلمين غير خاضعة لما يخضع له سائرُ البشر في مشكلاتهم ، ويفعل المسلم هذا حين يفعل ، بروح من التسامي والتقديس . ذلك أنه يظن أن رفع شأن المسلمين إنما يكون بعدم خضوعهم للسنن التي يخضع لها سائر البشر .

وينبغي أن يُوضَّحَ هذا الأمرُ بدقة ، وبصورة كافية ومقنعة ، ولا بد أن أتناوله ، وإن لم أبلغ به الدرجة التي أريدُ لها من الوضوح والبيان ، لأن وضوحَ هذا يكون له أثر في نظر المسلم وموقفه من المشكلة . إذ حين يرى المسلم المشكلة خاضعة لسنة عامة تنطبق على سائر البشر ، يدرك أنه يمكن أن يستفيد من الوقائع التاريخية البشرية التي حدثت للأقوام قديماً وحديثاً ، والتي لا تزال تحدث الآن .

والذي يؤكد عمومية الموضوع أن الله يقول للرسول صلى الله عليه وسلم :

«قل ما كنت بِدْعاً من الرسل» الأحقاف ـ ٩ ـ .

ويصور الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الموضوع

بصورة من يرى المستقبل من خلال السنن حين نقول : (لتتبعن سنن من قبلكم حذو القذة بالقذة . . .) حتى إنه يصل في المشابهة الى أن يحشرهم في جُحْرِ الضَّبِّ .

ومثل هذا النظر الى الموضوع ، هو الذي نفتقده الآن ، وعلينا أن نكتسبه ، لأن هذه النظرة القرآنية هي التي تجعل المسلم قادراً على الاعتبار الذي يلح عليه القرآن .

فأمامنا تجارب القرون الماضية ، تجارب كثيرة تظهر فيها سنن تغيير الأقوام ، التي يخضع لها المسلمون أيضاً ، كأي قوم من الأقوام .

وفي الواقع ، إن هذا النظر القرآني يجرد الانسان من ملابساته ، ويرجعه الى أصله المجرد الذي يخضع للسنن .

فإذا حصَّلناهذا النظر نكون قد أخرجنا المشكلة من مجال الغموض والتَكَهُنَاتِ ، الى مجال الرؤ يةِ الواضحة ، التي يُمكن النظرُ إليها كمشكلةٍ إنسانية ، لا على أنها مشكلة مبادىء ، بمعنى أن ننظر الى الموضوع كمشكلة مجتمع ، لا كمشكلة دين وعقيدة . وبعبارة أخرى كمشكلة بشرٍ مسلمين لا مشكلة إسلام . وهذا أيضاً في حاجة الى شرح أيضاً .

فحين أقول : مشكلة مجتمع ، لا مشكلة دين ، لا أريد أن أنزع المسلم من دينه وعقيدته ، بل حرصي عليه أن يبقى على دينه كحرصه بل أشد . ولكن ما أريده هنا : أن أفرق بين السنن التي تجعل الانسان عاجزاً ، والسنن التي

تجعل الانسان مجتهداً عاملاً .

وليس قصدي أن أجعل العقيدة والإسلام موضع تشريح وبحث ، فإن الإسلام ليس مجالَ البحث في صدقه وحقيقته وصحته ، فالإسلام حقيقة من حقائق الكون ، كالشمس والقمر في مجال المادة . فإن الإسلام في مجال سير المجتمع البشري ، والأمة الواحدة العالمية ، كالشمس والقمر في مجال المادة .

فلندع الآن هذه الحقيقة ، ولنرجع الى الانسان المسلم الذي ينطبق عليه ما ينطبق على البشر ، من غفلة وجهل ، وعنجهية وغرور ، وطيبة ووداعة ، وسذاجة وحماقة . . فالبشر قد أودعوا نفوسهم أفكاراً عن الشمس والقمر في قديم الزمان ، ولكن هذه الأفكار مهما كانت خاطئة لم تكن لتؤثر في حقيقة سير الشمس والقمر ، ولم يتغير شيء من نظام الكون من أجل تلك الأفكار ، وبقيت سنن سير الشمس والقمر كما هي لم تتغير . ولم يكن الذي كان في حاجة إلى تغيير حينذاك ، سنّة الشمس والقمر ، ولكن الذي كان في حاجة الى المزيد من البحث والعناية ، هوالانسان ، الذي حشى نفسه بالظنون والأوهام ، وارتفع بها إلى مستوى القداسة ، وكان عنده استعداد أن يزهق الأرواح التي تحمل أفكاراً تخالف ما يحمله هو .

فإذا رجعنا الى الانسان المسلم ، نجد أن نظرته ومفهومه عن الاسلام ، كمضمون ، وكطريقة لحل المشكلات ، كمثل

نظر أولئك الى الشمس والقمر ، من حيث البعد عن الحقيقة . فالمنهج القرآني مثلاً في بحثه لِمشكلات التقدم والتخلف المادي عند الناس ، يواجهها كمشكلة عامة ، وكمشكلة أقوام ، لا كمشكلة دين وعقيدة ، وإنما مشكلة صلة بدين .

وينبغي أن أنبه هنا الى أمرين أيضاً :

الأول : حين نقول مشكلة عامة .

في الواقع إن المشكلة عامة ، لأن السنَّة لا تكون سنَّة إلاَّ إذا كانت عامة ، ولكن ليس معنى هذا ، أن مشكلة المسلمين لا تتميز بخصوصية ، من حيث العوارض ، والملابسات الخاصَّة ، التي ينبغي أن يراعيها المسلم حين يأخذ في معالجة المشكلة ، إلا أن قصدي هنا أن لا يختلط على المسلم القاعدة العامَّة التي يخضع لها كل الأقوام ، مع الأمر الخاص الذي يخص المسلمين . فمثلاً قد يكون الانخداع بالوهم والتعلق به مما يحول بينهم وبين رؤ ية طريق الصواب وهذا سنَّه عامَّة في البشر . ولكن لا يشترط أن يكون الوهم الذي يتعلق به كل قوم ، نوعاً واحداً من الأوهام ، بل يمكن أن تكون أوهاماً متعددة ، ولكن سنَّة التعلُّق بالوهم واحدة ، وإن كان نوع الوهم مختلفاً . فعلينا أن نراعي هذا في بحث مشكلة المسلمين .

الثاني : حين نقول : إن المشكلة مشكلة إنسان ، لا مشكلة عقيدة ، كذلك في حاجة الى تفصيل ، وذلك لأن

شرعة القرآن ، وإن كانت حقاً ، إلا أن فهم المسلمين لهذه الشرعة ، وهذا المنهاج في جميع نواحيه ، ليست في أذهان المسلمين على أصالتها ووضوحها ، وأحياناً يكون فهمهم لها على عكس حقيقتها ، فمن هنا تظهر الحاجة الى تغيير ما بأنفس المسلمين عن الاسلام ، في قليل أو كثير ، ولا سيما بعد هذا الركود الطويل ، الذي جعل كثيراً من الخرافات والنظرات الخاطئة تحمل قوة قداسة الإسلام والقرآن عند المسلمين .

وهذا الأمر، يمكن أن يعتبر خصوصية في المسلمين، من حيث تعلقهم بأوهام لا صلة لها بالقرآن وكأنها القرآن . وتفصيل هذه الأوهام وكشف النقاب عنها ، يشكل عقبات في سبيل الإصلاح ، لأنها تشكل أوزاراً تحملوها وابتدعوها ما كتبها الله عليهم ، فظلت في أعناقهم كأحجار الرَّحى المدلاة التي تعوق حركتهم وتثقلهم ، وكالغشاوات على الأعين تحول دون رؤ ية الصواب ، بل صارت كالأقفال على القلوب ، التي تمنع إدراك الصواب ، وتجعل أمام إمكانية قبوله صعوبات مضاعفة .

وعلى الرغم من أن هذه الأوهام ، اكتسبت نفس قداسة وقوة آيات الله ، في أنفس المسلمين ، إلاَّ أن المسلم على علاَّته ، عنده من التعلق بالقرآن ما ليس لأحد من أهل الكتاب . فلهذا كانت صعوبة تخلص المسلمين من هذه الأوهام أصعب ، وفي حاجة الى حذق ورفق ، في تغيير ما بنفسه عن دينه وعقيدته ، من الخطأ إلى الصَّواب .

وإن عجز المسلم عن هذا التغيير ، يرجع في كثير منه ، الى غياب وضوح سنن تغيير ما بالنفس ، ولا سيما حين يحدث هذا التغيير خلال عصور طويلة ، وهنا تظهر أهمية معرفة سنن التغيير لما بالأنفس ، سواء كان هذا التغيير الذي حدث ببطء من قديم ، أو الذي يحدث الآن بسرعة كبيرة .

فهذه المعرفة الواضحة ، لما حدث من التغيير البطيء سابقاً ، وما يحدث من التغيير السريع لاحقاً ، أمر ضروري للسيطرة على التغيير الذي نريده نحن .

١ ـ فلا بد من معرفة سنن التغيير لما بالأنفس .

٢ ـ كما لا بد من معرفة ما ينبغي أن نغيره ، من الأوهام ، وما ينبغي أن نثبته من الحقائق .

٣ ـ ومعرفة ، مَنْ هؤلاء الذين ينبغي أن نجري على ما بأنفسهم هذا التغيير ، وإن اختلفت معادلتهم الشخصية وبيئتهم ، إذ أنهم مشتركون في أصل البلاء .

فهذه المعرفة المفصلة أمر لا بد منه للبدء في أية عملية تغيير جاد

سُنَّةُ مُجْتَمَعٍ لا سُنَّةُ فَرْدٍ

كذلك إن الآية ، حين تبين هذه السنة ، تبين أنها ، سنّة اجتماعية لا سنّة فردية ، بمعنى أن كلمة «بقوم» تعني الجمع أو الجماعة التي يطلق عليها أمّة ، أو مجتمع . ولعلنا نبين معنى المجتمع إن شاء الله في المستقبل .

ولا يفهم من الآية ، قصد فرد معين ، بدليل أن الله لم يقل (إن الله لا يغير ما بإنسان حتى يغير ما بنفسه) ، ولا ما يدل على شخص فرد، سواء كان رجلاً أم امرأة، مؤمناً كان أم كافراً . وإنما الحديث عن قوم ، عن مجتمع ، له خصائصه بما يشمل الرجال والنساء ، الصغار والكبار ، بكل محتويات القوم أو المجتمع المعين أو الأمة .

وينتج عن هذه الملاحظة ، أنه لا يشترط أن يغير الله ما بشخص إذا غير ما بنفسه . كما أنه لا يشترط أيضاً أنه لا يغير الله ما بالشخص إن غير ما بنفسه ، لأن البحث ليس عن شخص معين ، وإنما البحث عن مجتمع بمعناه الخاص ، أي باعتباره كياناً واحداً وجسماً واحداً . إذ أن الفرد ، يمكن أن يتغير ما به في بعض الجوانب ، إن غير ما بنفسه ، ولكن ذلك ليس دائماً في كل الأمور ، فهناك أمور خاصة بالمجتمع ، لا بد من تغييرها ، حتى ينال الفرد نصيبه من هذا التغيير .

وعلى هذا يكون مضمون الآية (إن الله لا يغير ما بقوم) ـ ما بمجتمع أو كيان اجتماعي ـ حتى يغير هذا المجتمع ، أو الكيان الاجتماعي ، ما بأنفسهم . وبهذا نرجو أن نكون قد نبهنا الى هذه الملاحظة التي سنحتاج إليها أثناء البحث ، لأنه يترتب عليها أمور ، قد يحدث بدونها اختلاط وعدم وضوح ، وتوقف في قبول النتائج التي نريد أن نصل إليها .

ولكي نقرب الموضوع الى الأذهان أكثر نقول : إن الله تعالى يقول :

«إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون . الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين» الأنفال ـ ٦٦ ـ .

نفهم من هذه الآية أن صبر عدد قليل كعشرة أمام ألف لا يشترط إحراز النصر ، فكأن الآية تتحدث عن توازن في الكم والكيف ضمن حدين . ويمكن الاختلاف على اعتبار أن العدد لا مفهوم له . ولكن الذي لا يمكن الخلاف عليه هو اعتبار التوازن في الكم والكيف ، وزيادة الكم حين يضعف الكيف ، وهذا واضح في قوله تعالى :

«الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين» ، بعد أن كانوا يغلبون ألفاً .

فمن هنا نفهم ، أن الغلب أو النصر الذي يحرزه

المجتمع ، أو الأمة المخاطبة بقوله : (منكم) لا يتم بثبات فرد ، أو بأن يكون ما بنفس فرد قد تغير ، إذ لا بد من ثبات عدد معين ، له حد أدنى وأعلى ، وإن كانت آية الأنفال هذه تحدد الكم ، وتدخل عامل الكيف ، الذي جاء بحثه في موضوع خاص ألا وهو الثبات في المعركة . إلا أن هذه الخصوصية ليست محصورة في المعركة القتالية ، فمعارك الحياة كثيرة ، فمعركة بناء المجتمع كذلك تحتاج الى التوازن نفسه .

ونَذْرُ الانسانِ نفسَه ، وما وهبه الله من قوة وعمر في سبيل فهم مشكلات المسلمين ، يشمل كذلك نفس التوازن ، سواء ذلك في بناء الفرد والمجتمع .

ومعركة التعامل مع سنن الله على أساس الوعي ، أمر يشمل الكافرين والمؤمنين ، وأن الفقه لسنن الله يعطي النتائج حتى للكافرين ، ولهذا لّما قال تعالى :

«يغلبوا ألفاً من الذين كفروا» أعقبه بقوله «**بأنهم قوم لا يفقهون**» فهذا يدل على تدخل فقه الكافرين أيضاً ، كَمّاً وكيفاً ، ولا سيما الفقه لسنن الحياة الدنيا كما سنبحثه فيما يأتي ، لأن الله يمد المؤمنين والكافرين :

«**كُلَّاً نُمِدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً**» . **الإسراء ـ ٢٠ ـ**

وهذا النظر الى الموضوع يبين ، خطورة أن يبقى في المجتمع أعداد ، مهما كانوا قلّة ، لا يتمتعون بالوعي التام لقضايا المجتمع . وكذلك ، خطورة عدم وجود العدد

الكافي ، أو الحد الأدنى ، من الذين يعون الأمور على هذا الأساس من النظر . وإدراك ضرر وجود غير الواعين في الأمة ، يولد لدى المجتمع شعوراً بالخطر ، أن يكون المركب الذي يسير بالمجتمع ، يحتوي على نماذج لا تعرف سنن طفو الأجسام على الماء ، فيسعون بحسن نية ، أو سوء نية ، لخرق السفينة ، كما ورد في الحديث الشريف الصحيح .

علينا أن ندرك ؛ أن التوازن الدقيق في وعي المجتمع ، يتأثر كما يتأثر توازن المركب ، بحيث لو أن ذبابة وقعت على طرف المركب ، أثَّرت في توازنه مهما كان التأثير ضئيلاً . كما أن الجسم الانساني نفسه ، قائم على مثل هذا التوازن الدقيق في عوامل الصحة والمرض ، فالغدد في الجسم تفرز ـ حسب الحاجة ـ الإفرازات . إلا أن المجتمع لا يفرز بالغريزة ، الوعي الذي ينبغي أن ينتشر فيه ، لأنه ينبغي أن يقوم وعي المجتمع ذاته ، بتنظيمه . وهذه مهمة عقل المجتمع ، الذي يعتبر كل فرد فيه مسؤ ولاً . وتتعاظم المسؤ ولية على قدر ما يتوفر للمرء من فرص في تحصيل ذلك وتنفيذه .

هذا ونلاحظ أن مثال السفينة (المادة) فيزيائي ، بينما في الجسم بيولوجي يعتمد على الغريزة ، وفي المجتمع يعتمد على العقل .

وإدراك الموضوع بهذا المستوى ، يجعل المرء يشعر بقشعريرة حين يتذكر أنه سيسأل عن عمره فيم أفناه ، هذا العمر الذي يبعثره . وسيسأل عن الإمكانات الأخرى التي

أهملها وضيعها حين لم يسع الى تحويل ما أودع الله في نفسه من إمكانيات بالقوة الى إمكانيات بالفعل . ومثال الشيء الذي عند الانسان بالقوة : الاستعداد الموجود عنده لتعلم القراءة والكتابة . ومثال الشيء الحاصل عنده بالفعل : هو تحول هذا الاستعداد الى واقع عملي حين يصير هذا الانسان قارئاً وكاتباً عن طريق الجهد الذي يبذله للتعلم . وكذلك سائر الاستعدادات الكامنة في الانسان .

سنة دنيوية لا أخروية

لا تتوجه الآية إلى المشكلة الأخروية والحساب الأخروي . وإنما تتوجه إلى المحاسبة الدنيوية الاجتماعية .

ونحن ينبغي أن تكون لدينا القدرة على فهم هذا الموضوع على هذا الشكل . كما أن هذا ليس معناه أن نقلل من شأن الآخرة ، أو نهمل دخل الآخرة في الموضوع ، ولكن المقصود هو التنبيه الى مجال السنن وحدودها . وأن مضمون هذه الآية في محاسبة الناس ، أو محاسبة المجتمع ، وتغيير ما بالمجتمع على أساس العمل الجماعي وفي الدنيا أيضاً . وأن التغيير المراد في الآية ، هو التغيير الذي يحدث في الدنيا .

وهذه الملاحظة ، تفيد أيضاً في تحديد الموضوع وتوضيحه ، وتساهم في إمكان فهم أعمق لآلية تغيير المجتمع . كما تبين أن المحاسبة في الدنيا جماعية ، ومحاسبة الآخرة فردية . أما كون المسؤولية في الآخرة فردية فالآيات التي تدل عليها كثيرة منها قوله تعالى :

«ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً» . مريم ـ ٨١ ، وقوله تعالى: «ألاَّ تزرُ وازرةٌ وزرَ أخرى وأنْ ليسَ للإنسانِ إلاَّ ما سعى وأنَّ سعيهُ سوفَ يُرى» النجم ـ ٤٠ .

واما المسؤولية الاجتماعية، أي مؤاخذة المجتمع كله،

فكذلك واضح في قوله تعالى :

«واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصّة واعلموا ان الله شديد العقاب» الأنفال ـ ٢٥ .

فحين تنزل المصيبة على المجتمع المقصر فانها تعم أفراداً لم يكونوا مقصرين ، وبالمقابل قد يسعد أفراد مقصرون في المجتمع السليم .

ويدل على هذا أيضاً حديث الرسول صلى الله عليه وسلم لّما سئل : : «أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم إذا كثر الخبث» وهذا واضح في أن محاسبة المجتمع في الدنيا جماعية كما أن المصيبة تعم الجميع وكذلك النعمة .

وينبغي أن يفهم ذلك في حدود المجتمع .

في الآية تغييران
تغيير الله وتغيير القوم

وينبغي أن لا تفوتنا هذه الملاحظة . لأن نص الآية ، على حسب قواعد الإعراب ، ان فاعل التغيير الأول ، المذكور في الآية ، هو الله سبحانه وتعالى ، وفاعل التغيير الثاني ، هم القوم ، أو المجتمع ، وإن كانت القدرة التغييرية الثانية ، هي هبة من الله تعالى للقوم وإقدار منه تعالى للمجتمع على ذلك . وعلينا أن لا ننسى هذا التوزيع في العملية التغييرية ، لأنه كثيراً ما يغيب عنّا ما يخص الانسان من التغيير ، ويختلط علينا الأمر ، وهذا الغموض ، يفقد الانسان ميزته وايجابيته في عملية التغيير .

وإن أي ظن ، أو طمع ، في أنْ يحدث الله هذا التغيير الذي جعله من خصوصياته ـ ألا وهو الجانب الذي يتعلق بما بالقوم وليس بما بالنفس ـ قبل أن يكون القوم هم بأنفسهم قاموا بتغيير ما بأنفسهم .

ان هذا الظن ، والاغفال لهذه السنة الدقيقة المحكمة ، يبطل النتائج المترتبة على سنة هذه الآية .

في الآية ترتيب
بين حدوث التغييرين

والتغيير الذي ينبغي أن يحدث أولاً ، هو التغيير الذي جعله الله مهمة القوم وواجبهم ، باقدار الله تعالى لهم على ذلك . وإن حدوث أي تهاون في الخلط بين التغييرين ، وإدخال التغيير الذي يحدثه الله بالتغيير الذي يقوم به القوم ، أو العكس ، يفقد الآية فعاليتها ، وتضيع فائدة السنة الموجودة فيها .

والرجاء ، بأن يحدث الله التغيير الذي يخصه ، قبل أن يقوم القوم (المجتمع) بالتغيير الذي خصّهم الله به ، يكون ـ هذا النظر ـ مخالفاً لنص الآية ، وبالتالي إبطالاً لمكانة الانسان ، وأمانته ، ومسؤ وليته ، ولِمَا منحه الله من مقام الخلافة على أرضه . لأن هذا التحديد في مجالات التغيير ، وهذا الترتيب فيما ينبغي أن يحصل أولاً ، وما يحدث تالياً ، هو الذي يضع البشر أمام مسؤ ولية حوادث التاريخ . ومن هذه النافذة ، يمكن إبصار أثر البشر ، في أحداث التاريخ ومسؤ وليتهم إزاءها .

وعلينا أن نؤكد هذه القواعد دون كل أو ملل ، لأن عدم الانتباه إليها فاشٍ بين الناس ، والذين ينتبهون إليها ،

لا يعطونها قدرها ، فلا بد من تذكرها دائماً وإعطائها قدرها ، حتى يرتفع هذا الادراك ويبلغ المستوى الذي لا يسمح بمرور الأفكار والكلمات ، التي تعودنا أن نسمعها أو نتحدث بها ، إزاء تفسير أحداث التاريخ ، برؤية الجانب الذي يحدثه الله ، دون إدراك علاقته بالجانب الذي يخص القوم وأولويته أيضاً كما سنبينه فيما بعد .

وعلينا أن نوقف هذا التيار ـ الذي يعم مختلف طبقات المجتمع ، في التفسير المتناقض لأحداث التاريخ ـ التيار الذي تَبْطُل معه مسؤولية البشر ، أو يجعلها غير بارزة ، أو يجعلها مستورة ، بينما يبرز الجانب الذي يخص الله :

«وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» . النحل ـ ٣٣ .

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

مجال كل من التغييرين
تغيير الله وتغيير القوم

إن مجال التغيير الذي يحدثه الله ، هو ما بالقوم ، والتغيير الذي أسنده الله إلى القوم ، مجاله ما بأنفس القوم .

«ما بقوم» يشمل الكثير ، ويشمل أول ما يشمل ما يمكن أن يلاحظ ويرى من أوصاف المجتمع ؛ من الغنى والفقر ، والعزة والذلة ، والصحة والسقم . وينبغي أن نتذكر هنا ، أن القصد ليس الفرد ، كل فرد بذاته ، وإنما المجتمع العام . وأن التغيير الذي يحدثه الله من الصحة والسقم ، والغنى والفقر ، والعزة والذلة ، إنما يعود إلى القوم بمجموعهم لا إلى فرد محدد . إذ قد يحدث أن يغنى القوم ، ولكن ليس معنى هذا أن لا يبقى فيهم فقير . كما قد يحدث أن يفقر المجتمع ، وليس معناه أيضاً أن لا يبقى فيهم شخص غني . وكذلك الأمر بالنسبة للصحة والسقم ، قد يصيب القوم السقم ، ولكن لا يشترط أن يصاب كل منهم بسقم ، كما قد يصيب القوم الصحة ولكن لا يشترط أن لا يبقى فيهم سقيم . ونؤكد مرة أخرى ما سبق أن بيناه ، من أن السنَّة التي في الآية ليست فردية ، وإنما هي اجتماعية ، وهذا يقتضي منّا : أن تكون لدينا القدرة على النظر إلى المجتمع (القوم) ككائن واحد بمجموعه

وهذه نظرة قرآنية بكل معنى الكلمة حيث يقول الله تعالى :
«لكل امَّة أجل» الاعراف ـ ٣٤ ـ ، وقال : «ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون» ـ٤٣ ـ المؤمنون .

فهذا الأجل هنا ليس أجل الفرد وإنما هو أجل الأمة ، لأن للأمة وللمجتمع كياناً يكون حيَّاً به وعلى أساسه يأتيه الأجل ، ولا يشترط أن يكون أفراده ماتوا ، ولكن الكيان الذي كان للأمة مات وذهب ، كمجتمع الفراعنة ، ذهب ولم تبق له باقية ، لا بهلاك أفراده وإنما بذهاب كيانه . وهذا ما جعل محمد إقبال يقول في أن أجل الامة الاسلامية إلى قيام الساعة :

أمَّــة الاســلام تأبــى الأجَلا   أصلُها الميثـاق في قالـوا بلى

اشارة الى قوله تعالى : **«ألست بربكم قالوا بلى» الأعراف ـ ١٧٢** .

فالنظر إلى المجتمع كفرد ، يسهل لنا فهم التغيير الذي يحدث فيه .

مثلا : يمكن النظر الى المجتمع على أساس الصحة والسقم ، باعتبار عدد الأصحاء في المجتمع ، فاذا كان نسبة الذين يتمتعون بصحة كاملة هي ٥٠٪ من المجتمع ، فان هذا المجتمع أقل نعمة من المجتمع الذي نسبة الأصحاء فيه تبلغ ٩٠٪من أفراده . كما أنه لا شك أن مصلحة الفرد أن يعيش في مجتمع ٩٠٪ من أهله أصحاء بدلا من أن يعيش في مجتمع ٥٠٪ منه فقط الذين يتمتعون بصحة جيدة وكاملة .

علينا أن لا ننسى أن هذا سنَّة دنيوية ، لا سنَّة

أخروية . وكذلك الأمر بالنسبة للغنى والفقر .

هذا ويمكن أن يفصل في هذا الموضوع بأدق وأكثر مما ذكر الآن .

وعلينا أن نعود الى مجال هذا التغيير ، الذي يحدثه الله بما بالقوم . كما أن مما يدل على صحة هذا التفسير الذي سقناه لمعنى «ما بقوم» في قوله تعالى :

«إن الله لا يغير ما بقوم . . »

إنه يشمل الغنى والفقر ، والصحة والسقم ، والعزة والذلة ـ ما ورد في سورة الانفال من استبدال كلمة «ما» في سورة الرعد بكلمة «نِعْمَة» حيث قال :

«ذلك بأنَّ الله لم يك مُغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» الأنفال ـ ٥٣ ـ .

إذ أن كلمة نعمة أخص من كلمة «ما» لأن كلمة «ما» تشمل النعمة والنقمة ، كما أن كلمة النعمة عامة أيضاً في جميع أنواع النعم ولا سيما وأنها جاءت نكرة .

فكلمة «نِعْمَة» تشمل الصحة ، وهي من أكبر النعم ويقول صلى الله عليه وسلم في ذلك : (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ) ، والرزق نعمة وكذلك الغنى ، وسلامة الأعضاء ، ونجابة الأولاد ، ونظافة المساكن ، والمودة والحب والاخاء .

«فأصبحتم بنعمته إخواناً» آل عمران ـ ١٠٣ .

والتراحم والايثار ، واللين والشدة ، كل في مكانها ،

«فبما رحمة من الله لنت لهم» آل عمران ١٥٩ ، «وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها» إبراهيم ٣٤ .

كل هذه النعم ما ذكر منها وما لم يذكر ، وما يقابلها من النقم : متضمنة في قوله تعالى :

«إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» الرعد -١١- .

هذه هي التغييرات التي يحدثها الله تعالى بالأقوام .

وأما التغييرات التي يحدثها الأقوام ، فان الله تعالى علّقها بما بالأنفس . فما هذا الذي بالأنفس وهل للبشر قُدْرَةً على تغييره بما مكّنهم الله فيه ؟

إن المراد بما بالأنفس : الأفكار ، والمفاهيم ، والظنون ، في مجالي الشعور واللاشعور . وملاحظة الارتباط بين التغييرين ، وتمكُّن الانسان من استخدام سنن التغيير ، يعطي للانسان سيطرة على سنّة التاريخ ، وسيطرة على صنعه وتوجيهه .

وفي الواقع إن ابن خلدون لمح هذا الجانب ببصيرة نفّاذة ، وأدرك أنه لمح شيئاً خطيراً لم يُسبَق إليه في إقامة البرهان ، وإن سُبق إليه في ذكر العنوان . وابن خلدون هو فلتة من فلتات الزمان ، كما يقال عادة ، حين تخفى عوامل السنن في الأحداث ، إذ ألقى ضوءاً كبيراً في هذا المجال . ولكن المشكلة أنه كما لم يسبقه أحد ، كذلك لم يتبعه أحد من بعده أيضاً في العالم الاسلامي ، إذ أنّ هذا المنهج قد بدأ به

ابن خلدون ، ثم توقف من بعده .

ومما يلاحظ على ابن خلدون أنه كشف السنّة كشيء حتمي لا كسنّة يمكن السيطرة عليها . ومع ذلك فان الجانب الذي اعتنى به ابن خلدون ؛ هو الذي يمكن الانسان من لجام الزمان آخر الأمر .

ولخطورة ما اهتدى إليه ابن خلدون ، استحق أن يقول عنه أشهر مؤرخي العصر ، والذي يمسك بزمام فلسفة التاريخ الآن ، وهو توينبي قال عن المقدمة : «إنه أعظم عمل من نوعه أمكن أن يبتكره عقل من العقول ، في أي عصر من العصور ، في أي رَجَاً من أرْجَاءِ الأرض»[1] .

ويَعْتبر محمد إقبال : «تصور الوجود حركة مستمرة في الزمان» . هذه الفكرة هي أبرز ما نجده في نظر ابن خلدون إلى التاريخ ، مما يسوغ ما أضفاه عليه (فلنت) من مدح وثناء إذ يقول : «إن أفلاطون وأرسطو وأوجستين ليسوا نظراء لابنْ خلدون ، وكل من عداهم غير جديرين حتى بأن يذكروا إلى جانبه»[2] .

ونحن سنذكر شيئاً مما قاله ابن خلدون عن تفسير ما بالقوم وتحديده ، ثم بعد ذلك نشير إلى ضرورة الاطلاع على ما وراء تلك التغييرات، التي تلحق الأقوام مما سميناه نحن التغيير

---

(١) ص ٨ ـ من تقديم كتاب التحرير لمقدمة ابن خلدون .

(٢) تجديد التفكير الديني في الاسلام ص ١٦٢ . طبع القاهرة ١٩٥٥

الخاص بالله تعالى .

يقول ابن خلدون : (. . . ولم أترك شيئاً في أوليَّة الأجيال والدول ، وأسباب التصرف والحَوْل ، وما يعرض في العمران من دولة وملَّة ، ومدينةٍ وَحِلَّة ، وعِزَّةٍ وذِلَّة ، وكثرة وقِلَّة ، وعلم وصناعة ، وبَدْو وحَضر ، وواقع ومنتظر ، إلا واستوعبت جُمَلَهُ ، وأوضحت براهينه وعِلَلَهُ ، فجاء هذا الكتاب فذاً بما ضَمَّنْتُهُ من العلوم الغريبة ، والحِكَمِ المَحْجُوْبَةِ القريبة ، وأنا من بعدها مُوْقِنٌ بالقُصُورِ بين أهل العصور معترف بالعجز ، راغب من أهل اليدِ البيضاء . . . النظر بعين الانتقاد لا بعين الارتضاء ، والاعترافُ من اللوم مَنْجَاة والحُسْنَى من الاخوان مرتجاة)(١) .

وابن خلدون له من التطلع الى ما وراء الأحداث من أسباب ، سواء كانت هذه الأحداث دولاً ومللاً ، وعزَّة وذلَّة ، وكثرة وقلة . فان ما يذكره ابن خلدون هو هذه الأشياء الظاهرة مما بالقوم ، من غنى وفقر ، وصحة وسقم ، وعزة وذلة .

فهذه الأشياء هي التغيير الذي يحدثه الله في نص الآية .

وابن خلدون صار له من التطلع الى مبررات ومسببات هذه النعم والنقم ، لما بالأقوام والدول والملل، ما دعاه الى أن يُعمل فكره فوصل الى ما وصل اليه وهو يقول في ذلك :

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٢ طبع دار التحرير ـ القاهرة ١٩٦٦ .

«فان التاريخ في ظاهره ، لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول . . . وفي باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق . . . وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق ، وجدير بأن يعد في علومها وخليق» .

فهذا الذي يسميه ابن خلدون باطن التاريخ ؛ هو الذي سميناه القسم الخاص بالأقوام ، في تغيير ما بالأنفس مما أقدرهم الله عليه ، وعلى أساسه حمَّلهم أمانته . وابن خلدون يربط التغيير الأول بالتغيير الثاني ، ولكن بعد هذا لم يلح على كيفية قيام البشر بهذا الواجب . ولا حرج عليه فهو يدرك أهمية ما كشف ويشعر بامكان زيادته . وفي الواقع إن القارىء العادي قد لا يعطي لابن خلدون قيمته الحقيقية ، لأن الذي يعرف الفضل من الناس ذووه ، فان من عرف وتمرس على معرفة (كيف بدأ الخلق) ، هو الذي يقدر ما فعل ابن خلدون . أما من لا يعرف كيف وجدت العلوم ، ولا كيف تقدمت ، ويظن أن الأمر وجد هكذا ، فهذا لا يمكنه أن يقدر عمل ابن خلدون ، وقد كان ابن خلدون يعرف طبيعة عمله حين قال عن كتابه : إنه ضمنه علوماً غريبة ، وحكماً محجوبة قريبة ، فهذه المحجوبة القريبة هي التي تخفى على الناس ، ولهذا قال ابن خلدون ، في عبقرية نفَّاذة ، عن المؤرخين واستيعابهم للأخبار وجمعهم لها : « . . . وأدُّوها إلينا كما سمعوها ، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها

فالتحقيق قليل ، والتقليد في الآدميين عريق وسليل ، والتطفل على الفنون عريض وطويل . . . فللعُمران طبائع في أحواله ، ترجع إليها الأخبار ، وتحمل عليها الروايات والآثار . . . ثم إذا تعرضوا لذكر الدولة نسّقوا أخبارها نسقاً . . . لا يتعرضون لبدايتها ، ولا يذكرون السبب الذي رفع من رايتها وأظهر من آيتها ، ولا علَّة الوقوف عند غايتها ، فيبقى الناظر متطلعاً بعد إلى اقتفاء أحوال مبادىء الدول ومراتبها ، مفتشاً عن المقنع في تباينها أو تناسبها» ص ١١ .

إن عدم إدراك مشكلة العالم الاسلامي بهذا المستوى ، هو الذي يجعل شباب العالم الاسلامي متطلعا إلى افتقاد أحوال مبادىء المشكلة .

إن ابن خلدون جعل محور بحثه عن الدول ، ولكن إدراك الموضوع على أساس الحضارة ، ينطبق عليه نفس النظر . وهذا ما يحتاج اليه العالم الاسلامي لبحثه كثقافة حضارة لا كدولة ، اذ الدولة جزء من الحضارة ونتاج لها .

وما احوج العالم الاسلامي والعالم كله ، إلى بذل ما يستحقه البحث في أصول الحضارة في هذا العصر ، كما فعل ابن خلدون ، مع اختلاف المستوى ، ولكن الروح التي بدأ بها ابن خلدون بحثه ، هي التي تجعل كل من ينظر إليه لا يتمالك من الاعجاب مع قصور كثير من أمثلته ومباحثه قال :

(ولما طالعت كتبَ القوم ، وسبرت غَوْرَ الأمْسِ واليوم ، نبَّهتُ عَيْنَ القريحة من سِنَةِ الغَفْلَةِ والنوم . . فأنشأتُ

في التاريخ كتاباً ، ورفعت به عن أحوال الناشئة من الأجيال حِجَاباً ، وفَصَّلْتُهُ في الأخبارِ والاعتبارِ باباً باباً ، وأبديتُ فيه لأولية الدول والعمران عِلَلاً وأسباباً ، فهذبت مناحيه تهذيبا ، وقربته لأفهام العلماءِ والخاصةِ تقريبا ، واخترعته من بين المناحي مذهبا عجيبا ، وطريقة مُبْتَدَعَةً وأسلوباً ، وشرحت فيه من أحوال العُمْرَان والتَّمَدُّن ، وما يعرض في الاجتماع الانساني عن العوارض الذاتية ما يُمْتِعُك بِعِلَل الكَوَائِن وأسبابها ، ويُعرفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها ، حتى تنزع من التقليد يَدَكَ ، وتقف على أحوال من قَبْلَكَ من الأيام والأجيال وما بعدك . ص١١ .

الجانب المهم
هو التغيير الذي يقوم به القوم

والأمر الذي يجب أن نوليه اهتمامنا هو واجب التغيير الذي يخصنا ، كقوم وكمجتمع . هذا التغيير الذي ينبغي أن نقوم به ، يتعلق بما بالأنفس . وهنا نواجه وجهاً لوجه ، مشكلة الانسان بكل ثقله وبكل تبعاته ، نواجه مشكلة مستقبله وتاريخه ، مشكلة تخلفه ورقيه . فلقد منح الله الانسان القدرة على أن يغير ما بنفسه وينتقل من حالة إلى حالة أخرى .

والانتقال من الحالة الدنيا إلى الحالة العليا ، هو المقصد من الأمانة التي جاء ذكرها بقوله تعالى :

«إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوماً جهولاً» الأحزاب -٧٢- .

ظلوماً إن فهم هذا ولم يعمل به . وجهولا إن ظل قانعا بجهله دون أن يتعلم وهو يستطيع أن يتعلم لو أراد .

وعلينا أن ننظر الى المجتمع على أنه كائن له كيانه الخاص به ، له ذكاؤه وله اجتهاده ، لأن مصيره ومستقبله كمجتمع في هذه الحياة ، متعلق بمقدار تهيئة نفسه للقيام بهذه المهمة ،

مهمة تغيير ما بالأنفس .

من هنا يتبين لنا أن الجهد المجدي للبشر ، في محاولتهم تغيير المجتمع من الشر الى الخير أو بالعكس ، منطلقه الأنفس .

ولكن ما هذه الانفس ؟

إن القرآن الكريم لم يهتم بكشف الحقيقة عن كنه النفس ، لأنه على ما يظهر ليس محل جدوى ، إنما اهتم بموضوع التعامل مع الانفس لتغيير ما بها .

وهنا يرد التساؤل : هل بالنفس شيء ابتداءً ؟ أم يوضع فيها كل شيء ؟ وكيف يرفع ما بها ؟ وكيف يستبدل بغيره ؟ وما مقدار الصعوبات التي تقابل الانسان في هذا المجال ؟

إن الله تعالى يقول عن الانسان إنه يستطيع أن يزكي النفس وأن يدسيها :

«قَدْ اَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا» الشمس -١٠-

فما هي مباديء تَزْكِيَةِ النفسِ التي تَجْلِبَ الفَلاَحَ ؟ وما عوامل تدسية النفس التي تجلب الخيبة ؟

على حسب ما يظهر ليس في النفس ابتداء ، الا القابلية للفجور والتقوى ، وهذا هو الخلق العجيب الصنع ، الذي أبدعه الله تعالى على هذا الاستعداد العظيم من القابلية للفجور والتقوى . يقول الله تعالى في هذا :

«وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا» الشمس ـ ٨ ـ .

إن الله خلق النفس وسواها تسوية عجيبة فألهمها فجورها وتقواها ، هذه التسوية وهذا الالهام من عمل الله تعالى ، ثم قال :

«قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا» .

هذا العمل عمل الانسان ، إن الله نسب التزكية والتدسية للعبد ، ونسب التسوية والالهام للفجور والتقوى له سبحانه . وما نُسب الى العبد كذلك ، إنما باقدار منه تعالى بمنه وكرمه .

وقوله تعالى :

«حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم» .

يفيد أنه يمكن أن توضع في النفس الافكار ابتداء ، كما يمكن أن يرفع ما فيها من مفاهيم ويوضع فيها أخرى ، وهذا أهم ، في عملية التغيير ، من إنشاء الأمر ابتداء ، ومع ذلك أسند الله للبشر هذه القدرة في إزالة المفاهيم واستبدال غيرها بها .

وجدير بنا أن نعمل الفكر والنظر في هذه المهمة المنسوبة للبشر وعلينا أن نبصر ونتبصر ، والله تعالى يقول لنا :

«وفي أَنْفُسِكُم أَفَلاَ تُبْصِرُونَ» الذرايات ـ ٢١ .

وكيف لا نولي هذا الموضوع اهتمامنا . وهو مشكلة المسلمين ، بل ومشكلة البشر عامة ، لأن الأمر ليس بناء

النفس الآن ابتداء لأنها لم تعد على الفطرة ، بل هي في حاجة إلى هدم ثم بناء في آن واحد ، فان مواريث القرون الماضية قد غمرت النفوس بكثير من الآصار والأغلال ، فلا بد من إزالتها ، وأن يحل محلها غيرها . كما لا بد من إعادة الصفاء والوضوح للنفس حيث تراكم عليها الصدأ والرين :

«كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون» المطففون ـ ١٤ ـ

فلم تعد تقدر على أداء مهمتها ، بل هي تقوم بمهمة العطالة .

إن النفس في أصلها سليمة ليس فيها الا الاستعداد، مسواة وملهمة فجورها وتقواها ، إلا أن بعض الأفكار تطرأ على الأنفس في وقت مبكر جداً ، في عهد الطفولة الاولى ، فتنزل إلى أعماق النفس لتقوم بدورها في صياغة سلوك الانسان .

وفي هذا الصدد يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه» والعقائد المذكورة في الحديث والابوان ليست للحصر ، إنما الأمر يشمل كل عقيدة ، وكل وسيلة ومؤثر ، لاعطاء عقيدة أو فكرة .

معنى الفطرة :

ومعنى الولادة على الفطرة ، هو المعنى الموجود في قوله تعالى :

«ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من

زكاها وقد خاب من دساها» : الشمس ٧ ـ ١٠ .

وليس معناه أنه يولد مسلما ، فهو يولد مسلما بالاستعداد ، اما تحويله إلى مسلم بالفعل ، إنما يكون بعملية تزكية النفس ، لأن الانسان الوليد لو ترك وشأنه منعزلا لما صار مسلماً ، بل جعْله مسلما أيضا في حاجة إلى عمل البيئة والأبوين ومن يقوم مقامها كما هو مشاهد .

ومعنى الفطرة بشكل أدق ، هو استعداد للميل إلى الحق ، وهذا الاستعداد يجعله يختار الحق ، حين تترك له حرية الاختيار ، على الا يلحق هذا الاستعداد تشويه .

فاذا عُرِض أمران على شخص خالي الذهن ليس عنده هوى سابق ، فانه يميل بفطرته إلى الحق ، فلو عرض الاسلام وغيره من العقائد ، على إنسان خالي الذهن ليس عنده مواريث سابقة ، فانه يختار الاسلام ، كما هو مشاهد في مجالات التبشير وحوادث التحولات إلى الاسلام . ولكن معنى خلو الذهن من المؤثرات أمر دقيق . وهذا دليل على أن النفس التي تأثرت بالمؤثرات السابقة لم تعد على الفطرة ، وفي هذا المعنى حديث مسلم : «إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وانهم اتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم» . ولابن تيمية بحث عن الفطرة قال : [1]

---

(١) طريق الوصول الى العلم المأمول مختار من كتب ابن تيمية جمعها عبد الرحمن بن ناصر السعدي النجدي ص ٦١ . مطبعه الامام ـ مصر

«والعلوم الفطرية الضرورية حاصلة مع صحة الفطرة وسلامتها . وقد يعرض للفطرة ما يفسدها ويمرضها فيرى الحق باطلاً» .

وقال أيضا «والناس إذا تنازعوا في المعقول ، لم يكن قولُ طائفةٍ منها ، مذهبٌ حُجَّةً على الأخرى ، بل يُرْجَعُ في ذلك إلى الفِطَر السليمة التي لم تتغير باعتقاد يغير فطرتها ولا هوى» (١) .

وقال في مكان آخر «والله خلق عباده على الفطرة التي فطرهم عليها وبعث إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه . فصلاح العباد وقوامهم بالفطرة المكمَّلة بالشِرْعَة المنزَّلة . وهؤلاء الفلاسفة بدَّلوا وغيَّروا فطرة الله وشِرْعَتَه ، خَلْقَهُ وَأَمْرَهُ» (٢) . وفي الأساس للزمخشري . . «فطر الله الخلق وهو فاطر السموات مبتدعها ـ وكل مولود يولد على الفطرة ـ أي على الجِبِلَّةِ القابلة لدين الحق» .

---

(١) ص ٥١ المصدر السابق .

(٢) ص ٤١ المصدر السابق .

ما بالقوم نتيجة لما بالنفس

إن اللهّ سيغــير ما بالقــوم حتما ، إن هم غــيروا بأنفسهم ، سنَّة الله :

«فهل ينظرون إلا سنة الاولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة اللهّ تحويلاً» فاطر ـ ٤٣ .

إذ أن هذا التغيير الذي يحدثه الله في القـوم ، من نوع التغيير الذي يحدثـه الله من الحـرق عنـد السقـوط في النـار ، والغرق عند الرسوب في الماء .

وهنا وإن كنا ندخل في موضوع كلامـي ، لا حرج أن نبين أن علماء الكلام اختلفوا في : هل النار هي التي تحرق ، أم أن الله تعالى يحدث الحرق عندها ؟

وهل السكين هي التي تقطع أم أن الله يحدث القطع عند حز السكين ؟ . . . الخ

ليس المهم الآن بحث هذا الموضوع بهذا الشكل . وإنما المهم أن نعرف أنَّ من سنَّة الله تعالى ، أنْ جعل المادة القابلة للاحتراق تحترق حين تقع في النار ، وأن يخلـق الشبـع عنـد تناول الطعام ، والشفـاء مع الـدواء ، والانبـات عنـد توفـر الشروط للبذرة .

فصفات المادة من صنع الله تعالى ، فصفة الذَّرة وصفة

مركباتها ، هذه الصفات والسنن من خلق الله . وهذه الصفات الموجودة في عالم الصغائر والمركبات الميتة منها والحية ، كل هذه الصفات من صنع الله ، الذي وضع لها سننا لا تتغير ولا تتبدل .

لماذا ؟

وليس من مهمة العلم والعقل أن يفهم العِلَّة في هذا ، أي عِلَّة لماذا تشكل الماء مثلا من الهيدروجين والاوكسجين بالذات دون غيرها .

ان جدوى البحث في هذا المجال قليل ، كما يظهر لنا .

وَلَعلَّ قوله تعالى :

«يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة . . .»

القصص ـ٦٨ ـ إنما يتناول مثل هذا السؤال وما يشبهه .

وقد قال في هذا الموضوع ـ كلود برنار ـ في مدخل دراسة الطب التجريبي : (فالعالِم الذي سار بالتحليل التجريبي إلى الحتمية بالنسبة لظاهرة ما ، لا جرم يرى في وضوح أنه يجهل هذه الظاهرة في علتها الأولى ، وإن كان قد بسط سلطانه عليها . فهو يجهل الأداة التي تعمل وتتصرف ، وإن يكن يستطيع الانتفاع بها» ص٨٥ .

فالاتجاه الى هذا الأمر في التفكير غير مجد . ولكن السؤال

عن كيف ؟

كيف نحصل على الماء ؟ وكيف نصنع النار ؟ وكيف

نربي الانسان ونعطي له أخلاقا ؟ وكيف ننشيء المجتمع الصالح ؟ . . .

فهذه أسئلة مفيدة ، لأن معرفة الاجابة عنها ، تجعل للانسان سلطانا على الكون المسخر له . لهذا يأمرنا الله أن نسير في الأرض ، وننظر كيف بدأ الخلق :

«قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بَدَأَ الخَلْقَ» العنكبوت ـ ٢٠ ـ

لأن معرفة كيفية تكُّون الخلق تظهر سننه ، ومعرفة هذه السنن ، هي التي تعزز سلطان الانسان على هذا الكون المسخر له .

ما الغاية ؟

وهنا سؤ ال ثالث هو : ما الغاية من الخلق ؟

قد يتفاوت الناس في ادراك الحِكَمِ والأهداف ، وهذا السؤ ال لا يقال عنه أنه لا جدوى منه ، بل هو قصد أهل العلم والحكمة ، وان خفي ذلك على كثير منهم :

(يؤتي الحِكمَةَ من يشاء ومن يؤت الحكْمَةَ فقد أوتي خيراً كثيراً» البقرة ـ٢٦٩ ـ .

ليس من مهمة البشر خلق السنن ، انهم لا يقدرون على ذلك وانما على البشر أن يكتشفوا هذه السنن ، وأن يجتهدوا في البحث عنها شوقاً الى كشفها والاستفادة منها ، وأن يشكروا الخالق المنعم بها .

فهذه الصفة التي يثبتها الله تعالى للنفس ، من إمكانية

أن يغير الناس ما بهذه النفوس ، هي من صنع الله ومن إلهامه . وتتولد من الأفكار التي يضعها البشر بالنفس ، صفات تتعلق بالقوم ، وهذه الصفات أيضا من خلق الله تعالى ، كالغنى والفقر والعزة والذلة . . . .

فهذه الصفة الفريدة للنفس الانسانية هي التي وصفها الله بقوله :

«ونفس وما سواها ، فألهمها فُجُورَها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها» الشمس ـ ٨ ، ١٠ .

إن الله ألهم النفس البشرية فجورها وتقواها ، ولكن الانسان هو الذي يزكي فيفلح ، ويدسي فيخيب . فكما أن اجتماع الذرات المختلفة بنسب معينة يعطي مركبات خاصة مختلفة . كذلك فان اجتماع الأفكار المختلفة بنسب معينة ، تعطي الانسان والمجتمع مسلكية معينة متميزة .

ويجدر بنا في هذا المقام ، أن نلفت النظر إلى أن الله جعل للانسان سلطاناً على تغيير ما بالنفس ، الذي هو مجال جهد الانسان الذي نحن بصدد البحث عنه ، والذي نريد أن نقيم الأدلة والبراهين عليه .

وفي الواقع إن الذي جهل هذه الحقيقة ، ووضع في نفسه فكرة غامضة أو مخالفة لهذه الحقيقة ، لا شك أنه يحل به الكسل والخمول ، والعجز والجبن ، وهذا ما كان يستعيذ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم «اللهم انِّي أعوذ بك من الهم والحزن ، والعجز والكسل» فهذا الدعاء ، والتوجه به إلى

الله ، يجعل الانسـان حَذِراً من أن تَحـدُثَ لديه أفـكارٌ تنتـج الكسلَ والخمولَ ، فان لم يحذر هذه الأفكار ، فهو كمن يرفع يديه الى السماء يقـول : يا رب ، يا رب ، ومطعمـه حرام ومشربـه حرام ، وغـذِّي بالحـرام» . . فان كان غذاء نفســه وعقله ، من نوع الأفكار الجاهلية والخرافية التي تبطل جهـد الانسان وتسيء الظـن بالله ، بالاعتقـاد بأن الله لم يعـط هذا الانسان الامكانيات الملائمة ، إن كان كذلك فأنَّى يستجـاب له !

لقد جعل الله هذه الصفات (الكسل والخمـول . . .) تتولد ذاتياً من تلك الأفكار الخـرافية والجـاهلية . ولـكن الله تعالى بمَنِّه وكرمه جعل لنا سلطاناً على تلك الأفكار ، كما جعل سلطانَنَا على الحديدِ والنار ، فهذا هو التكريم الحق لابن آدم .

وهذه الرابطة بين ما بالقوم وما بالأنفس رابطة ينبغي أن نستحضرها في كل الأمور ، لأنه في اللحظة التي تختفي فيهـا هذه الرابطة ، لا يمكن إلا أن نكون جبريين شئنا أم أبينـا . فنكون من الذين ينكرون جهـد الانسـان وسلطانـه . وهـذا الانكار متفاوت إذ لا يكفي أن نعترف بعدة خطوات من جهد الانسان ثم نقطع رجليه في بقية المراحل . وإنما ينبغي أن نسير به إلى المدى الذي أعطاه الله له .

فاذا خفيت علينا الرابطة بين ما بالأنفس وما بالقـوم ، وخفي علينا سلطان الانسان على ما بالنفس ، حين ذاك إمَّا أن نكون جبريين نلقي خطايا البشر على الله ، وامَّا أن نكون غير

معترفين بنعمة الله على البشر ، والتي تستوجب الحمد والشكر ، والتسبيح والتقديس لمالك الملك ، واهب القوة مكرم الانسان ، سبحانه وتعالى عما يشركون . وسنوضح ذلك فيما يأتي بإذن الله تعالى .

لتحقيق التغيير لا بد من تغييرين

تغيير القوم ، وتغيير الله ، لا بد من توفرهما جميعاً ، ليتحقق التغيير .

كما لا بد من أسبقية التغيير الذي يحدثه القوم . إلاّ أن بين هذين التغييرين ترابطا ، فاذا وقع التغيير الذي يخلقه الله ، دلَّ ذلك قطعاً على أنَّ التغيير الذي يقوم به القوم ، قد سبق أن حدث ، لأن الله تعالى اشترط هذه الأسبقية .

كما أنه إذا تحقق التغيير الذي تقوم به القوم ، فان التغيير الذي يخلقه الله سيتم على أساس وعد الله تعالى الذي لا يخلف الميعاد وسنته التي لن تجد لها تحويلا .

ولكن علينا أن ننتبه إلى أن هذا التعهد إنما هو في مجال القوم ـ أي الجماعة أو المجتمع ـ لا في مجال الفرد ، وفي مجال الدنيا لا في مجال الآخرة . كما أنه لا يلزم أن يحدث التغيير للفرد الواحد إن غير ما بنفسه ، وإن كان يمكن أن يحدث ذلك في بعض الأمور الخاصة مثل السلوك الفردي ، وعلى كلٍ فان هذا الوعد أو هذه السنة في هذه الآية سنَّة اجتماعية ، لا سنَّة فردية .

وعلى هذا الأساس ، فكل تغيير يحدث لما بالقوم سواء في الوعي ، والصحة ، والاقتصاد والسياسة والنصر والعزة ،

وسائـر صنـوف النعـم والنقـم ، يتضمـن هذا التغيير ، تغييرين : تغيير القوم ، وتغيير الله .

وبعد بيان هذا التلازم بين التغييرين ، في أنَّ حدوث أحدهما يلزم حدوث الآخر كنتيجة حتمية ، لأن الله هو الذي خلق هذه النتائج من تلك الأعمال ، وأن حدوث هذه النتائج فورية ، كسنن الطبيعة التي أودعها الله في الكون المادي . فالانسان هو الذي يفعل الأسباب بتمكين من الله تعالى له :

«ولقد مَكنَّاكُم في الأرض» الأعراف ـ ١٠ ـ .

والله تعالى هو الذي يخلق النتائج ، لأن الانسان لا قدرة له على خلق النتائج ، وإنما مجال الانسان يتمركز في الاستفادة من السنن الموضوعة .

ويمكن أن نفهم هذا الموضوع بوضوح في قوله تعالى : «أفرأيتم ما تُمْنُوْنَ أأَنْتُم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ . . أفرأيتم ما تحرثـون أأنتـم تزرعونـه أم نحـن الزارعـون ؟» الواقعة ـ ٦٤ .

هنا أثبت الله للانسان عملا ، وأثبـت لذاتـه خلقـاً ، ولكن هذا لا يتم إلا إذا عمل الانسان ما يخصه من العمل مهما كان تافهاً .

«أفرأيتم ما تُمْنُوْنَ» إن الانسان يقوم بهذا ، ولكن ليس هو الذي يخلق ، ولا هو الذي وضع السنن ، والذي يقوم به الانسان شيء بسيط ولكن اللهّ تعالى يحدث هذه النتيجة ـ من الخلق العجيب ـ من ذاك العمل البسيط .

«فتبارك الله أحسن الخالقين» المؤمنون ـ١٤ ـ .

وهذا مثال مقرب في التمييز بين عمل الانسان وخلق الله . وكذلك الزرع ، فان الانسان يغرس ولكن سنة الانبات ، وسنّة صنع الثمار ليست من قدرة البشر ، وإنما يقوم الانسان هنا أيضاً ـ كما في كل الأمور التي يقوم بها ـ بعمل بسيط جداً مثل غرس النبات ، والله بعد ذلك هو الذي يخلق تلك النتائج البديعة . فهذا مثل قرآني قريب واضح لكل واحد من الناس ، ويمكن لأبسط إنسان أن يمارسه لأنه يقع تحت ملاحظته . وهذا المثل القرآني يُطَمْئِنُ قلبَ المؤمن إلى صِدْق هذه القاعدة ، ذات الأهمية البالغة فيما أنيط بالانسان من أمانة ومسؤولية في مصيره كمجتمع في الدنيا ، وفي مصيره كفرد في الآخرة .

وبعد هذا نقول : إن ما ورد في القرآن من حديث عن التغيرات الاجتماعية التي تقع للمجتمعات ، لا يذكر اللهّ دائماً في كل موضع التغييرين ، وإنما شأن القرآن أن يذكر أحياناً التغييرين معاً كما في هذه الآية :

«إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» .

وآيات أخرى كثيرة مبثوثة في القرآن مثل قوله تعالى :

«فبما نَقْضِهِم مِيْثَاقَهم لعناهم وجَعَلْنا قلوبَهم قاسية» المائدة ـ١٣ ـ . شيء أحدثوه في نفوسهم من الاستخفاف بالميثاق فنتج عن ذلك أن جعل الله قلوبهم قاسية .

وكذلك قوله تعالى :

«فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم» الصف ـ٥ ـ .

ففي هذه الآيات جمع الله بين عمل القوم وما خلق الله فيهم نتيجة ذلك . ولكن قد يرد في القرآن أحياناً ذكر أحد التغييرين دون الآخر ، سواء كان المذكور التغيير الذي يخلقه الله ، أو التغيير الذي يحدثه القوم ، ويفهم من ذلك ضمناً التغييران معاً إذ الترابط بينهما واضح . فمثلا في قوله تعالى :

«والله لا يهدي القوم الظالمين» البقرة ـ٢٥٨ ـ .

في هذه الآية ذُكِرَ التغييران ، التغييرُ الذي يخلقه الله تعالى من عدم الهداية ، والتغييرُ الذي يحدثه القوم من نظراتهم التي تُهَوِّن عليهم ارتكابَ الظلم ؛ أي أن الله لا يغير ما بقوم من الضلال ، حتى يغيرَ القومُ ما بهم من الظلم ، أو ما بأنفسهم من الظنون والأفكارِ التي تسهل عليهم ارتكابَ الظلم .

والذي يريد أن يجعل من هذا القاعدة القرآنية ، قاعدة مطردة ، عليه أن يستحضر دائماً ـ وخاصة حين يكون الحديث عن المجتمعات وما يحدث لها ـ تَضَمُّن التغييرين في كل موطن يتوهم فيه الاقتصار على أحدهما .

فاذا جاءت آية تقول : إن الله أنعم على قوم ، وأعزهم ونصرهم ورزقهم من الطيبات ، فمعنى ذلك أن عند هؤلاء الأقوام في أنفسهم ما يوجب ذلك ، وكذلك الأمر بالنسبة لما يحيق بالبشر من النقم ، وما ينزل عليهم من المصائب فلا ينزل شيء الا باذن الله ، وإلا بما كسبت أيدي الناس .

وهذا الاستحضار الذي حرصنا عليه ، هو نفس ما دعا إليه وفعله ابن كثير في تفسير قوله تعالى :

«ختم الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة» البقرة ـ٧ ـ .

فسرَّ ابنُ كثير الخَتْمَ : بالطبع نقلا عن السُّدِّي ثم قال : وقال ابن جرير وقال بعضهم : إنما معنى قوله تعالى : «ختم الله على قلوبهم» إخبار من اللهّ عن تكبرهم وإعراضهم عن الاستماع لما دُعُوا إليه من الحق . كما يقال : إن فلاناً أصَمٌّ عن هذا الكلام ، إذا امتنع عن سماعه ورفع نفسه عن تفهمه تكبرا . وقال ابن جرير : وهذا لايصح لأن اللهّ تعالى قد أخبر أنه هو الذي ختم على قلوبهم وأسماعهم . قلت : ـ يعني ابن كثير نفسه ـ وقد أطنب الزمخشري في تقرير ما ردَّه ابن جرير هنا . وتأوَّل الآية من خمسةِ أوجهٍ وكلها ضعيفةٌ جداً ، وما جرَّأه على ذلك إلا اعتزاله ، لأن الختم على قلوبهم ومنعها من وصول الحق إليها قبيحٌ عنده ، يتعالى اللهّ عنه في اعتقاده . ولو فهم قوله تعالى : «فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم» الصف ـ٥ ـ .

«ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم في طغيانهم يعمهون» الأنعام ـ١١٠ ـ .

وما أشبه ذلك من الآياتِ الكريماتِ الدالةِ على أنه تعالى إنما ختم على قلوبهم ، وحال بينهم وبين الهدى ، جزاءً وفاقاً على تماديهم في الباطل وتركِهم الحقَّ ، وهذا عدلٌ منه تعالى وَحَسَنٌ ، وليس بقبيح . فلو أحاط علماً بهذا لما قال ما قال ،

والله أعلم .

وقال القرطبي : «وأجمعت الأمة على أن الله تعالى قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم . . . » .

وهذا التحليل الذي رد به ابن كثير على الزمخشري ، يُقَرِّرُ بوضوح القاعدة التي نريد أن نثبتها هنا ، من أن الختم الذي هو من عمل الله ، نتيجة طبيعية للزيغ والكفر ، الذي فعله الانسان بناء على ما بنفسه . وعلينا أن نتذكر هذه العلاقة في كل موطن .

وكما أن القرآن أحياناً يذكر عمل الله وعمل القوم معاً وبوضوح وتفصيل ، فهو أحياناً أخرى يقتصر على أحدهما ، على أساس أنه يستلزم حدوث الآخر ضمناً ، وهذا ما ذكره ابن كثير ، حيث أن هذه الآية اقتصرت على ذكر عمل الله في الظاهر . لهذا استشهد ابن كثير بآيات أخر ذُكِرَ فيها العَمَلانِ بالتفصيل .

ومن الآيات التي توقع في شبهات كبيرة ـ وذلك حين يَغْفُلُ الانسان المسلم ، عن هذه العلاقة بين تغيير الله وتغيير القوم ـ قَوْلُهُ تعالى :

«قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير» آل عمران ـ٢٦ ـ .

ففي هذه الآية لم يذكر الله إلا إيتاء الملك ونزع الملك ،

وإيتاء العزة وإنزال الذل ، وقد ربط هذه الأمور بالمشيئة دون أن يذكر عمل الانسان .. ولكن مشيئة الله ليس لنا أن نحددها نحن ، وإنما اللهّ سبحانه وتعالى هو الذي يحدد ذلك فهو يقول :

«وما تشاؤون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً ، يدخل من يشاء في رحمته ، والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً» الانسان ـ٣١ ـ إنه يدخل من يشاء في رحمته ، ولكن الظالمين أعد لهم عذاباً أليماً .

فاذا حاول البعض أن يفسر مشيئة الله كما يريد هو ، يُرَدُّ عليه بأن هذه المشيئة ؛ هي المشيئة التي على أساسها وضع الله سنة الاجتماع البشري في قوله تعالى : **«إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»** والتزام هذه القاعدة ، ورد المسلمين إليها ، أمرٌ جوهري في عملية التغيير .

كما أن من المفيد أيضا في هذا الموضوع ، تفهم القاعدة التي يقررها ابن تيمية كثيراً ، من أن مشيئة اللهّ قسمان :

١ ـ مشيئة كونية .

٢ ـ ومشيئة شرعية .

فالمرض مشيئة كونية يمكن للانسان أن يبطلها باتخاذ الأسباب .

والزكاة مشيئة شرعية ولا يجوز مخالفتها أو التحايل عليها .

ومن الخطأ البالغ ، أن يُظَنَّ أن الله يؤتي المُلْكَ لقوم لم

يهيئوا أنفسَهم لذلك ، كما أن العزة والذلة لا يوزعها الله جُزافاً . والخطأ في الموضوع منشؤه ؛ ظن أن الله مثل طغاة البشر ـ حتى ليس مثل عادليهم ـ يوزع ملكه كما يفعل الظالمون .

تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً . بل الله أحكم الحاكمين . وإظهارُ هذه الحِكْمة واجبُ الذين أُخِذَ منهم الميثاقُ حين آتاهم الكتاب أن يبينوه للناس ولايكتمونه .

وكما قال ابن كثير عن الزمخشري لو أنه تذكر قوله تعالى : «فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم» الصف ـ٥ ـ لما وقع في هذه المشكلة . كذلك المسلمون ، الذين يقعون في رؤ ية مشكلة المشيئة مبتورة ، ولو أنهم رجعوا الى السنن التي وضعها الله تعالى في قوله :

«إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» الرعد ـ١١ ـ بشمولها وإحاطتها ، لكان عصمةً لهم من الزيغ ، في نسبة الفوضى وعدم المعقولية إلى الله ، حين يقفون حيارى في تفسير الأحداث . ولا يغرنك منهم تنزيه الله عن النقص ، إذ أن الموضوع مشوش في أذهانهم .

ومشيئة الله هي ؛ تمكين الناس من تزكية أنفسهم وتدسيتها ، وليس تمكينهم من أحدهما فقط . وقد يأتي على الانسان وقت يفقد فيه هذه القدرة ، بعد أن يفسدها ، فيطبع اللهّ على قلبه ، ويعجز عن العودة والاهتداء ، فيحق عليه قوله تعالى : «ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا» الكهف ـ١٧ ـ .

وهذا المعنى هو محتوى خاتمة آية التغيير في قوله تعالى :
«وإذا أراد الله بقوم سُوْءاً فلامَرَدَّ له ومالهم من دونه من والٍ» الرعد -١١- .

وهذا واضح في حديث الفتنة التي تعرض على القلوب كالحصير عوداً عوداً . إذ يكون الانسان في البدء قادراً على التزكية والتدسية ، ولكن بعد أن تفسد فطرته ، قد يعجز عن أن يملك دائماً تلك الحرية والقدرة على الاختيار التي كان يملكها . وصيرورة هذا الانسان على هذا الشكل ، إنما بسعيه ، وليس لأن الله فرض ذلك عليه ابتداء .

قلنا فيما سبق ؛ إن الله يخلق الصفات في المادة . وَنُكَمِّلُ الموضوعَ الآن ، بأن نبين أن الله يخلقُ الأفعالَ من الأفكارِ . فالأفكارُ المشوشةُ تتولدُ منها أفعالٌ هزيلةٌ مبتورة ، ويمكن أن نرى مثالا واقعياً على هذا في واقع المسلمين الذين طال عليهم الأمد .

فمن تكمن من معرِفَةِ الخواص التي يخلقها الله تعالى في المواد ، يمكنه أن يسيطر عليها . كذلك من تمكن من معرفة الأفعال التي يخلقها الله تعالى مما بالأنفس ، يمكن له أن يسيطر على المجتمع . وفي الحقيقة تعتبر هذه النقطة من أعظم ما جاء به الانبياء ، ونزلت من أجله الكتب ، وأمر من أجله بالاعتبار بِسِيَرِ الماضين ، والنظر إلى الأنفس . ومـا لم يَرْجِعْ إلى المسلمين هذا العلمُ ، وهذا الفهمُ ، فستظل أعمالُهم تسيطرُ عليها الفوضى والتدابرُ مع القلقِ والحَيْرَةِ .

مفهوم التغيير عند الآخرين

بحثنا في فصول هذا الكتاب ، فكرة التغيير مستهدين بهداية الآية الكريمة :

«إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» الرعد ـ١١ ـ .

وبيّنّا التغيير الذي يحدثه الله في خلق النتائج ، والتغيير الذي يقوم به البشر في تهيئة الأسباب ، والتعامل معها ، وضربنا لذلك مثل خلق الانسان ، وزرع النبات ، وفي مجال سلوك الانسان طبّقنا هذه القاعدة بالتفصيل ، كيف يتغير سلوك الانسان حسب مافي نفسه ، كما بحثنا إمكانية تغيير ما بالنفس وأنها من مهمة البشر . كما بينا أن التغيير الوارد في القرآن ، سنة عامة لكافة البشر ، كما أنها سنة اجتماعية لا سنة فردية على عمومها ، كما سنبين تفاوت ما بالنفس في الرسوخ وما يترتب على ذلك ، وكذلك خضوع بعض سلوك الانسان إلى فكر راسخ غير متذكَّر . . . الخ .

وموضوع تغيير المجتمعات له مقام الصدارة في بحوث هذا العصر . ويعتبر الشيوعيون أنفسهم أنهم أبو عُذْرَةِ هذه الفِكْرَة ، وعلى أساسها يطلقون على أنفسهم مفهومَ التقدمية ، ويَعِيبُون فَهْمَ كُلِّ البشريةِ بأنه ميتافيزيقي رجعي طوباوي ،

معتبرين أن غيرهم يسلب نفسه القدرة على تغيير التاريخ .

وقد لخصوا تاريخ المعرفة البشرية في مقدمة الديالكتيك ، واعتبروا ، أن ماركس وانجلس بيّنا : أن الفلاسفة فسروا العالم بينما المهمُ تغييرهُ .

وفي كتاب «الناس والعلم والمجتمع» الذي ألفه ستة من علماء الروس ، جاء في هذا الكتاب جواب عن التساؤ ل التالي : «ما هو دور الناس في مجرى التاريخ ؟ فهل الضرورة (الحتمية) التاريخية شبيهة بقدر الآلهة ، ففيم العمل إذن ؟ وهل أحدنا يناضل لكي يأتي الربيع والصّيْف ؟ إن قانون التاريخ غير قانون الطبيعة ، حيث تشق الطريق بواسطة نشاط الناس . وقوانين التاريخ لا تعمل أوتوماتيكياً ، وأن الناس هم الذين يصنعون تاريخهم بنشاط الناس الذين يعون بدرجة متفاوتة من الوضوح حاجات التطور الاجتماعي المختمرة . . .» صفحة ٦٩ . وفي صفحة ٨٧ من نفس الكتاب : «إن الماركسية بكشفها عن قوانين التطور الاجتماعي ، وإعطائها صورة علمية عن العالم تحولت إلى سلاحٍ روحي للبروليتاريا» .

وفي الديالكتيك : «في المزية الثالثة للفلسفة الماركسية : كما أمكنَ معرفةُ قوانينِ تَطَوُّرِ الطبيعة ، يمكن معرفة قوانين تطور المجتمع ، ولها دلالة موضوعية . وبالتالي رغم تعقد حوادث الحياة الاجتماعية وتشابكها من الممكن أن يصبح علماً فيه من الدقة ما في البيولوجيا . وقادراً على استخدام قوانين

التطـور الاجتماعـي في تطبيقـات علمية ، وبالتـالي تصبـح الاشتراكية علماً» [١] .

هذه الميزة التي رأوها لأنفسهم . وجدوها حجـة كافية لنبذ كل فكرة إيمانية على الاطلاق كما قالوا في الديالـكتيك : «إذا كانت الطبيعة هي وحدهـا القـادرة على إعطائنـا الحقيقـة الموضوعية ، أصبح من الواجـب نَبْـذَ كلِّ نظـريةٍ إيمـانية على الاطلاق» .

وإذا تذكرنا ما سبق أن ذكرناه ، من أننـا حين نتعلـم كيف نقرأ آيات الله في الآفاق والأنفس ، لم يعد هناك ما يجعلنا نخاف على آيات الله في الكتاب ، لأن آيات الآفاق والأنفس ستبين أن آيات الكتاب هي الحق .

وكذلك إذا تذكرنـا أن علينـا أن لا نبخس النـاس أشياءهم ، وأن الحكمة لا تضر من أي وعاء خرجـت ، فان الاعتراف بجانب الصواب الذي في النظرية الماركسية لا يضرنا شيئاً . ولكن إذا رفضنا جانب الصواب بسبب جانب الكفـرِ الذي عندهم لا نكون مصيبين .

---

(١) صحيح أنهم عرفوا وجود السنن للمجتمعات ، ولكن ذلكَ اثبات للسنن ، الا ان تفسيرهم لهذه السنن لم يكن الا جزئيا جدا حيث حصروه في وسائل الانتاج ، بينما وسائل الانتاج جزءٌ صغير يساهـم في تغييرما بالنفس ، وان كانت كتاباتهم الاخيرة تدل على الخروج ـ من هذا الضيق الذي كانوا فيه ـ الى حد ما .

وحين يقول الماركسي : إن دراسة التاريخ الاجتماعي أصبحت علماً ، ينبغي أن لا نقول له أخطأت ، بل نقول له هذا حق ، واذا اعتبر أن مظاهر الطبيعة قادرة على إعطائنا حقائق موضوعية ، علينا أن نراه تقريراً بأن آيات الآفاق تعطي حقائق موضوعية . ونزيدُ له أيضاً بأن آيات الأنفس كذلك تعطي حقائق موضوعية .

ولكن حين يصل من أقواله هذه إلى القول بأنه : «أصبح بناءً على ذلك . من الواجب نبذ كل نظرية إيمانية على الاطلاق» .

هنا نقول له : إن هذه النتيجة من تلك المقدمة ، هي الفكرة الطوباوية الناشئة عن الكراهية والعاطفة ، لا عن الدراسة الموضوعية .

والواقع أن الأمر كما قال العقاد : عن مؤمني وملاحدة القرن السابع عشر من أن كلا الطرفين كانا يصلان من مقدمة واحدة إلى نتيجة واحدة ؛ المقدمة هي : إذا ثبت أن الأرض تدور . النتيجة : لم تعد حاجة الى الله .

كان كلا الفريقين : الملحد والمسيحي يصلان إلى هذه النتيجة من تلك المقدمة . ولكن لم يكن يخطر في بال الطرفين إمكانُ أن تدورُ الأرضُ ولا يلزمُ من ذلك نفيُ الايمان .

وكذلك الأمر الآن في النظرية الماركسية ، من إثبات سنن الاجتماع ، فاذا اهتدوا الى سنن وآيات في سَيْرِ المجتمعات ، كما اهتدى قبلهم علماءُ الفلك إلى سُنَن سَير

الأجرام ، فان ذلك لا علاقة له بنفي الايمـان . كما قال أبـو حامدٍ الغزَّاليُّ في كتابه المنقذُ من الضلال :

«فاذا عَلِمْتُ أن العشرةَ أكثرُ من الثلاثـة . فلـو قال لي قائل : لا بل الثلاثةُ أكثرُ بدليلِ أني أقلبُ هذه العصا ثعبانا ، وقلبها وشاهدتُ ذلك منه ، لم أشكّ بسببه في معرفتي ، ولم يحصل لي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه ، فأما الشك فيما علمته فلا» .

وكذلك اليوم حين تَبْرُزُ الأدلةُ على إمكان تغيير المجتمع باتخـاذ الأسـاليب العلمية ، ويصلـون من ذلك الى نفـي الايمان ، علينا أن لا يثيرنا هذا . . . . ولـكن علينـا أن نتأمل السنن التي يَستخدمونها في تسخير المجتمع لهدفهم الذي اتخذوه . ونحن في هذه الحالة نكون حصلنا المناعة التي نحن في حاجة اليها . .

ولكن قبل هذا وذاك علينا أن نتعلـم كيف نتعامـل مع آيات الله في الآفاق والأنفس . وبدون هذا فسنظل نَعْمَـهُ في غيِّنا . ونتنازعُ في : هَلْ هُوَ مَلَكٌ أَوْ شَيْطَانٌ ؟

علم النفس الفردي والاجتماعي

نحن نسمع عن علم النفس وعلم الاجتماع ، ولكن عندما نريد أن نتعامل مع الواقع فسنلمس أموراً تختلف عن الأمر النظري المجرد ، إذ لا نجد حدوداً واضحة تفصلها .

ففي الواقع لا نجد علم النفس الفردي ، لأن هذا الفرد المنعزل الذي لا يتصل بأحد ولا يختلط به أحد أيضاً ، غير موجود في الواقع ، ولو وُجِدَ هذا الفردُ المنعزلُ لكان أقربَ الى التوحشِ منهُ الى الآدميةِ ، لأن الذي يُخْرِجُ الانسان من التوحشِ إلى الآدمية هو : اكتسابهُ للخبرات منذ نشأته وهو طفل ، ومنذ نشأة المجتمع ، وهو بعد لا يجد في نفسه الدافع إلى سَتْرِ عورته ، فتجمعت لديه خِبْرَاتُ الأجيالِ وتراث النبوات . فالناشىء لا ينشأ في فراغ بل مع تراث طويل العمر معقد .

ولكنهم حين يقولون علم النفس ، فانهم يبحثون عن استعداد الانسان الفرد لتلقي مفاهيمه من المحيط والتكيف معه . وهذه الاستعداداتُ كلُّها لا تجدي شيئاً خارج المجتمع .

وليس هنالك علم نفس فردي كحقيقة واقعة ما دام استمرار الجنس البشري لا يتم الا بالتزاوج ، والحياة

الاجتماعية تتـدرج لدى الكائنـات الحية على حسـب رقيهـا . فالسلحفاة تضع البيض ولا صلة لها بعد ذلك بصغارها فهي لا تحضن البيض ولا ترعى الصغار . . . والطير ترقد على البيض وترعى الصغار والحيوانات اللبونة تكتسب صغارها الخبرة من آبائها بالعشرة . (وهذا التدريب الذي يمارسه الوَلُوْدُ الحـادِبُ على أولاده ، قد أثار في العالم استمراراً جديداً للوعي ، ولـم يُقَدِّر الانسانُ قيمة هذه الفكرة إلا في العصر الحاضر) . (١)

فغريزة الحنو والحدب عند الحيوان والانسان ، تشـكل منطلق الحياة الاجتماعية وهي ترتقي عنـد الانسـان لتصـل إلى مرحلة الايثـار ، والتـي هي أسـاس الحياة الاجتماعية الـراقية «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» الحشر -٩ - .

إن غريزة الحُنُوِّ والحَدْبِ التي وضعها اللّهُ في البهائم حتى يستمر بقاؤها ، هي نفسها التي تَكْفُلُ للمجتمعـات البشرية حسنَ نموها ، وسرَّ رقيها .

والانسان أطول المخلوقات حضانة ، ويمتص في طفولته تراث الأجيال . ومن هنا كانت مرحلـة الطفولـة ذات أهمية بالغة في التكيف مع نمط معين من الحياة الاجتماعية ، بقيمهـا وتقاليدها ، ذلك أن أثر البيئة شديد على تكوين الانسـان . وهذا هو ما يشير إليه حديث : «كل مولود يولد على الفطرة ،

---

(١) معالـم تاريخ الانسـانية تأليف ولـز : جـ ١ - ص ٦١ . القاهرة ١٩٥٦ .

فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه» فالمجتمع هو الذي يعطي للفرد الذي ينشأ فيه قيمه وموازينه .

والاهتداء إلى السنن والقوانين ، التي تَدْمِجُ الفردَ بالمجتمع يجعل للانسان سلطاناً على صنع المجتمع ، وصياغةِ الفردِ الذي ينشأ فيه . كما يُحَقِّقُ المجتمع بهذه السنن حالةَ إلـ (نحنُ) ، أي شعور الفرد بالكيان الاجتماعي الذي يندمج فيه . وبالرغم من اختلاف هذه الكيانات في أشكالها ، فان سننها واحدة .

وقد أشرنا فيما سبق إلى عمومية السنة التي تخضع لها المجتمعات أو الأقوام ، مع امكان اختلافها في الأشكال والنماذج .

وقد قال لفين ١٩٤٣ : «يجب ألا تَفُتَّ في عَضُدِنَا تلك الصعابُ التي تعترض سبيلنا . والرأي عندي أن علماء النفس الاجتماعيين لهم الحق في أن يثقوا ويفخروا ، إلى حد ما ، بما تم في السنوات الاخيرة . فَمَنْ مِنا كان يجرؤ أن يتنبأ منذ بضع سنوات أننا سوف نستطيع ذات يوم أن نقيس الأجواء الاجتماعية ، ونقيس الزعماءَ وندربهم ، ونَدْرُسَ توترات الجماعة ، وعمليات التصحيح الجماعية كما هي الحال الآن» (١) .

(١) الاسس النفسية لتكامل الاجتماعي لمصطفى سويف ص ٣٠٠ طبع دار المعارف بمصر ١٩٥٥ .

إن إدراك أثر الاشتراك في العبادة واللباس والتحية الموحدة في تكوين الشعور بالوحدة الاجتماعية ، إن هذا الادراك يدخل هذه الأعمال تحت ضوء جديد ، ويرفع من قيمة أدائها ، ويبعث فيها حيوية جديدة .

وعلم الاجتماع ككل علم ، سواء كان الفلك أو التاريخ الطبيعي أو البيولوجي ، أول ما يبرز يبرز في صورة تعارض الايمان ، كما هو واضح فيما حدث حول الفلك وكذلك حدث لعلم الاجتماع وعلم النفس .

ولقد عشت هذه الظاهرة أيضاً ، فيما يخص علم النفس والاجتماع ، إذ كان يدرسنا هذا العلم في أواسط الخمسينات في الازهر أستاذ ذو اختصاص . ولست أدري كيف أعبر عن مقدار الفتور، إن لم أقل النفور الذي كنا نتبادله ، إذ لم تكن لديه القدرة على أن يرينا الموضوع أنه آيات الله في الآفاق والأنفس التي تشهد لآيات الكتاب أنه الحق . وكنا أعجز منه في إيجاد هذه العلاقة بين هذا العلم وبين الدين .

ومجيء العلوم في هذه العصور على هذه الصورة المُعْرِضَة عن الايمان ، أو في صورة المُعَارِضَةِ للايمان ، كان عقبة في سبيل الاستفادة منها في الوقت المناسب .

وما لم يتقدم أهل الرأي والخِبرة عند المسلمين لازالة شبهة التعارض هذه ـ بين أي علم حق وبين الايمان ـ فان الهوة تبقى بعيدة بين المسلمين وبين الاستفادة الكاملة من هذه العلوم .

ومن العوارض الخاصة بالنسبة لهذا العلم ، ما اقترن به في بدئه من اسم فرويد ، والمدرسة التي حاولت أن تفسر علم النفس حول محور دافع غريزة الجنس ، وكذا فجاجة الكتب ، وأسلوب تناولهم إما بشكل لا صلة له بالدين والايمان ، أو بشكل يُفْهَمُ منه أنه يُعارِضُ أحكام الدين والايمان . وبهذا يظل الموضوع فاقداً الصلة التي تُخْرِجُ هذا العلم النافع من غابة التوحش التي حشر فيها .

إن هذا العلم لا يزال في توحشه ولم يستأنس بعد عند المسلمين ، حتى يسخروه لتغيير ما بأنفسهم ، ولكشف ما ينبغي أن يغيروه مما بأنفسهم .

كل هذه الملابسات أطالت الوقت الذي كان يمكن أن يختصر ، وأبقت الحق ملتبساً بالباطل ، عن قصد من البعض ودون قصد من البعض الآخر . وكلما بُحِثَتْ هذه اشكلة أتذكر حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : «أنه كان في المدينة فزع ، فركب النبي صلى الله عليه وسلم ثم خرج يركض وحده ، فركب الناس يركضون خلفه ، فاستقبلهم وهو يقول لهم : لم تراعوا لم تراعوا . . .» . وبوب البخاري لهذا الحديث عدة أبواب منها : مبادرة الامام عند الفزع ، والخروج في الفزع وحده ، والسرعة والركض في الفزع الخ . . .

ان كان الفزع العسكري ، يقتضي السرعةَ والفزعَ والخروجَ للاستبراء للناس ، فان الغارة الثقافية ، والفزع

الثقافي ، تستوجب على أهل العلـم أن يكونـوا أَوْلىَ النـاسِ بالخروج اليها مسرعين راكضين حتى يعودوا للنـاس بحقيقـة الخبر ، وبجلاء الفزع . هذا وإن المفاجأة ، في الغزو الثقافي تترك وراءها من الخسائر في الأرواح ، وما يتبع ذلك من فقدان كل غال ورخيص ، أكثر مما يتركه أي غاز فاتح . بل إن أثر الغزو الثقافي أبقى على مر الزمن .

وقبل أن أختم هذا الحديث ، لا سيما وقد ذكرت قصة الأستاذ الذي درسنا علم النفس والاجتماع ، والذي جاء يبلبل الفكر على نفسه وعلى غيره ، كما فعل الوليد بن عقبة والذي نزل فيه قوله تعالى :

«يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا . . .» الحجرات ـ٦ ـ . أرى عليَّ أن أذكر الشيخَ محمد عرفـة حيث كان في محاضراته ، يحثنا على دراسة علم النفس ، كوصية يريد أن يودع فيها كل اهتمامه للشباب الذين كانوا يتلقـون عنـه ، وإني أذكر له هذه الوصية كلما كان البحث في مشكلـة تخلف المسلمين . وكان يذكِّرنا أن حل مشكلة «تخلف المسلمين» لن يتم إلا إذا تمت السيطرة على سنن تغيير ما بالأنفس .

كما علي أن أذكر أن لمالك بن نبي مقالا في كتابه (في مهب المعركة) عن الأفكار الميتة والقاتلة ، أبدع فيه في تحليل العوامل السلبية التي يعانيها المسلم عند اتصاله بعالم الثقافات .

العلاقة
بين سلوك الانسان وما بنفسه

هنا نستطيع أن نقول إن سلوك الانسان وأفعاله من عمل الله ، ومن خلق الله ، وهذا القول ليس دعما لما يسبق إلى الفهم من قوله تعالى :

«خلقكم وما تعملون» الصافات -٩٦ - .

وما يُذْكر حوله من نقاش في علم الكلام ، فيما إذا كان اللهّ يخلق أفعال العباد . ولكن الموضوع الذي نبحثه هو أن سلوك الانسان أثر ونتيجة . وقد قررنا سابقا أن نتائج الأسباب إنما يخلقها الله تعالى خلقا مباشرا لا دخل فيه لاحد :

«يخلق ما يشاء ويختار، ما كان لهم الخيرة» القصص -٦٨ - .

إلا أن علينا هنا نأخذ بعين الاعتبار ما أثبته الله للبشر من قدرة على تغيير ما بالأنفس ، وهذا الذي بالأنفس والذي تَنْتُجُ عنه الأفعال ، هو ما يخضع لسلطان البشر .

ومن الملاحظ أنه لا توجد ثمة علاقة بين السبب والنتيجة عقلا ، وإنما المشاهدة هي التي تقر هذه العلاقة . فمثلا رأينا أن (كذا) ترتب على (كذا) فآمنا به ، أما لم ترتب هذا على هذا أوعلى ذاك بالذات دون غيره ؟ فذلك لا طاقة لنا به . ولكن

الذي لنا فيه طاقة هو ـ وذلك بعد أن نعلم أن عمل كذا ، او حادثة كذا ترتب على كذا سبب من الأسباب ـ أن نتعامل مع هذه العلاقة بحيث نوجهها الوجهة التي تنفعنا ، ولا ندعها تأخذ الوجهة التي نتضرر منها .

ومن المناسب هنا أن نعود إلى ما سبق أن ذكرناه ، من أمثلةِ خلق الانسان ، ونبات الزرع . . . إن الانسان يفعل سببا معينا يَنْتُجُ منه خَلقٌ من الله ، كخلق الانسان ، وثمرة الزرع . كذلك فان الأفكارَ التي نضعها في الأنفس ، يخلق اللهّ منها أفعالا . فكما أن لنا قدرة على زرع الأرض زيتونا ورمانا أو عنبا . . . . فكذلك لنا قدرة على وضع الأفكار في النفس ، والتي تُنْتِجُ كلٌ منها عَمَلاً أو سلوكا معينا ، كما تثمر كل شجرة ثمرا معينا . فنحن لنا قدرة زرع ما نشاء من الثمار ، ولكن ليس لنا القدرة على أن نجعل شجرة النخيل تثمر بطيخا ، وكذلك الأفكار .

مثال : إن الله تعالى خلق بعض الأجسام ناقلا للكهرباء ، وبعضها عازلا . وليس مجال البحث هنا لم جعل اللهّ هذه المادة بعينها تنقل دون تلك التي لا تنقل ؟ وإنما البحث هو كيف نستفيد من هذه الصفة للتحكم في الكهرباء .

وكذلك الأمر بالنسبة لأعمال الانسان ليس السؤال المجدي : لم ترتب كذا عمل على كذا فكرة ؟ ولكن المجدي هو أن نسأل كيف نرفع كذا فكرة تُنْتِجُ كذا عملا وكيف نضع كذا فكرة في الأنفس لتنتج كذا عملا . وهذا الذي جعل الله لنا

سلطانا عليه . ولهذا صار الانسان مسؤ ولا عن أعماله .

وبعد هذا نقول : إن سلوك الانسان وتصرفاته نتيجة لأفكاره ، وبتعبير أدق لما بنفسه ، فاذا تغير ما بنفس الانسان سواء كان بجهده ، أو بجهد غيره ، فان سلوكه لا محالة يتغير . وهذا التغيير يمكن أن يصل إلى درجة النقيض ، كأن يتحول الاقدام إلى إحجام ، أو السرور إلى حزن ، أو أن الاقدام يتحول الى نوع من الفتور .

فاذا رأينا نتائج أعمال المسلمين تعاكس مصالحهم ، فان ما بأنفسهم عن الموضوع خاطىء ، وينبغي أن يتغير ما بأنفسهم حتى تتغير أعمالهم ، وإذا رأيناهم مترددين في موقفهم تجاه أمر ، فان ذلك يرجع إلى ما بأنفسهم عن هذا الأمر من القناعة بعدم جدواه ، أو بعدم إمكان الوصول إليه . . .

مثال أول :

يحكى أن عملاقاً بلغ من القوة ما يدهش ويحير ، وطبقت شهرته الآفاق ، وترامت أنباؤه حتى وصلت إلى عملاق آخر في بلد قريب ، فأحب أن يتعرف على ذلك الذي يتحدث عنه الناس ، فارسل إليه رسالة لطيفة يطلب وده ويعرض صداقته ، ولكن خاب ظنه حين جاءه الجواب القاسي ينهاه عن التطاول فوق مرتبته . . . . .

فصمم على الانتقام لشرفه من هذا المغرور الذي أساء الأدب في رده . فخرج يسعى اليه حتى وصل الى مشارف أرضه . ولما سمع المغرور وقع أقدام خصمه تهز الأرض

خارت قواه وتغير لونه ، وأدركت امرأته حاله ، فأشارت عليه أن يندس في الفراش ، وألقت عليه دثارا . . . ولما وصل الخصم الهائج سألها عن الوقح المغرور الذي لا يعرف قدر الناس ، حتى يعرفه نفسه ، ويعلمه كيف يكون جواب الناس . . فطلبت منه ألا يرفع صوته حتى لا يوقظ الطفل النائم ، وأشارت إلى قدميه وقد برزتا من تحت الدثار . فلما رآهما ، هذا الذي ما عرف قلبه الخوف ، صمت قليلا كأنما ألقي عليه دلو من الماء البارد ، ثم قال في نفسه :

طفل . . . ؟ ! فكيف يكون الأب اذاً . . . ؟ ! ثم أطلق ساقيه للريح عائدا من حيث أتى .

حين نسمع هذه الاسطورة قد نعرف أنها أسطورة ، ولكن مع ذلك نتفاعل مع أحداثها لأن أحداثها خاضعة لسنن نفسية . هذه الاسطورة مخترعة ، ولكن هذا الاختراع يدل على المفاهيم التي في نفس مخترعها ، سواء كانت قيم هذه المفاهيم سامية أم وضيعة . فبدلا من أن تُبرز القصة أو الاسطورة خنوع الانسان للقوة ، كان يمكن أن تبرز استعلاء الانسان بالحق ، كما في قصة السحرة مع فرعون كيف أنهم كانوا يقولون في أول النهار :

«بعزة فرعون إنَّا لنحن الغالبون» الشعراء ـ ٤٤ .

حتى إذا أتى عليهم المساء رأيتهم يواجهون طاغية الدنيا بقولهم :

«لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا ،

فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا» طه ـ ٧٢ .

فالقصة التي ذكرناها تبين الدافع الخلقي لما بالنفس عند المجتمع ، الذي من تراثه هذه القصة ، فتبرز روح الاستكبار في مواقف القـوة ، وروح الخنـوع عنـد الضـعف إذ هما متلازمتان . ان المستكبر حين يفقد القوة يذل ، والانسان الحق لا يستكبر عندما يملك القوة ، ولا يذل عندما يفقدها .

واذا تذكرنا قصة النبي يوسف عليه السلام ، نجد فيها مغزى رائعاً حيث يمثل الانسان الذي يملك القوة أمام سلطان الشهوة ، بينما الكتب القصصية في الحضارات الأخرى تدور حول الانسان الذي تعصف غرائزه بارادته .

لندع هذا ولننظر إلى سلوك الانسان في الاسطورة التي ذكرناها . اذ المهم في الموضوع : هو خضوع سلوك الانسان لما بنفسه مهما كان هذا الذي بالنفس . إن الشجاعة والجبـن ، والاقدام والهزيمة ، كل هذا يتعلق بما بالنفس ، فاذا تغـير ما بالنفس يتغير حالاً سلوك الانسان ، ولا يعود يملك سيطرة على قواه ، ويخضع خضوعا مطلقا لسلطان ما حل بنفسه . فمن يملك القدرة على تغيير ما بالنفس يملك أن يغير ما بالقوم .

ففي الاسطورة غيرت المرأة بذكائها ما بنفس العملاق ، فتغير وضعه حالا ، كَأَنَّمَا حدث كبس على زر ، فاذا المروحة دائرة ، واذا الرَّجُلُ يرتجف وهكذا . . . ويمكن ان يشاهد مثل ذلك في سلوك العالم الاسلامي في كثير من تصرفاته . . .

ولنذكر حادثة أخرى ولكنهـا واقعية إذ هي من السـيرة

النبوية الشريفة ، لتعطينا مثالا حياً عن سلطان الانسان الذي يملك القـدرة على تغيير ما بالأنفس ، فاذا ما بالأقـوام يتغـير حالا .

مثال آخر :

قال ابن قَيِّمِ الجوزيَّة في زَادِ المَعَاد ، في حديثه عن غزوة الخندق :

«ثم إن الله عز وجل ، وله الحمد ، صنع أمرا من عنده خذل به العدوَّ ، وهزم جموعهم وَفَلَّ حَدَّهُم . فكان مما هيأ من ذلك ، أن رجلا من غطفان يقال له نُعَيْمُ بن مَسْعود بن عامر رضي الله عنه ، جاء إلى رسـول الله صلى الله عليه وسلـم ، فقال : يا رسول الله إني أسلمت فمرني بمـا شئت . فقـال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما أنت رجل واحد فخذل عنَّا ما استطعت فان الحربَ خَدْعةٌ . فذهب من فوره إلى بني قريظة ، وكان عشيرا لهم في الجاهلية ، فدخل عليهم وهـم لا يعلمون باسلامـه فقـال : يا بنـي قُرَيْظَـة إنـكم قد حاربتـم محمـداً ، وإن قريشـا إن أصابـوا فرصـة انتهزوهـا ، وإلا استمروا إلى بلادهم راجعين وتركوكم ومحمدا فانتقم منكم . قالوا : فما العمـل يا نُعَيم ؟ قال : لا تقاتلـوا معهـم حتـى يعطوكم رهائن . قالوا : لقد أشرت بالرأي . ثم مضى على وجهه إلى قريش وقال لهم : تعلمون ودي لكم ونصحي لكم قالوا : نعم ، قال : إن اليهود قد ندموا على ما كان منهم ، من نقض عهـد محمـد وأصحابـه ، وإنهـم راسلـوه ، أنهـم

يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه ، ثم يوالونه عليكم فان سألوكم رهائن فلا تعطوهم . ثم ذهب إلى غطفان فقال لهم مثل ذلك . فلما كان ليلة السبت من شوال ، بعثوا إلى يهود : إنَّا لسنا بأرض مُقَام ، وقد هلك الكُراع والخُفُّ فانهضوا بنا حتى نُنَاجِزَ محمدا . فأرسل إليهم يهود : إن اليوم يوم سبت ، وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه ، ومع هذا فاننا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رهائن . فلما جاءتهم رسلهم بذلك ، قالت قريش : صدقكم والله نُعَيم ، فتخاذل الفريقان» .

«ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً» الأحزاب - ٢٥ .

هذا أسلوب في تغيير ما بأنفس القوم في موضوع معين ، ليتغير موقفهم . وكان هذا العمل باشارة واضحة من الرسول صلى اللهّ عليه وسلم . وكان المنفذ متقنا للعملية مستغلا للظروف ، ولعلمه بالتاريخ الماضي والحاضر للمشكلة التي يعيشها ، ولا سيما مع صِلاته الخاصة السابقة مع الفريقين ، كل ذلك مع تقدير جيد للموقف الذي عليه بنو قريظة وقريش ، مكّنه أن يؤثر بما بأنفسهم التأثير المناسب الذي يقتضيه الموقف ، فكان نجاحه بارعا .

إن قصة نعيم بن مسعود نَمُوذَجٌ واضح جداً على استغلال قدرة تغيير ما بالأنفس لتغيير المواقف .

مثال ثالث :

وفي هذا العصر ، أخذت العقول البشرية تهتم بهذا الموضوع للوصول إلى نتائجَ إيجابية بجهود قليلة ، لا تحتاج إلا إلى مهارات في معرفة نفسية الأقوام وتاريخهم ، وما يمكن ان يقبلوه بسهولة ، او يرفضوه دون تردد ، وتوجيه ذلك كله لصالح المشرف على عملية التغيير .

أجَلْ إن الذين يتنازعون الاشراف على هذا العالم ، وتسييره وفق الجهة التي يريدونها ، أخذوا يولون هذا المجال ما يستحقه من اهتمام .

جاء في كتاب مناهج السياسة الخارجية :

«ولكن الدبلوماسية ، بما فيها دبلوماسية أمريكا ، لا تستطيع أن تفعل شيئا أكثر من استغلال إرادة رجال الدول الأجانب للتوصل إلى الأهداف . ويجب على أمريكا لخلق هذه الارادة أن تستغل جميع وسائل السياسة الخارجية ، بما فيها الوسائل السياسية والعسكرية والاقتصادية والنفسية» .

وجاء في هذا الكتاب أيضا عن السياسة الخارجية الثقافية والايديولوجية :

«وتحاول أمريكا بلوغ أهدافها الخارجية بوسائل نفسية ، وتبدو هذه الوسائل أقل صلة بالسياسة من الوسائل الاقتصادية والعسكرية . ولكنها لا تختلف عنها في الغاية المتوخاة ، فتعمل بأساليب متنوعة بما فيها العلاقات الاجتماعية والثقافية والايديولوجية لتوسيع منطقة التفاهم ... ؟ والتأثير

على مواقف الاصدقاء والخصوم ، أو المحايدين كل على مقتضى حاله ، وقلما تحقق هذه الأساليب الآمال المعقودة عليها ، لأنها اكثر ما تثير رد فعل عفوي معاكس ، ويكون فعلها اقل اذا استعملت بمعزل عن وسائل أخرى ، ولكن حرص الأمريكيين عليها يعبر عن رغبتهم في الاهتداء الى بديل ـ للأساليب السياسية الصرفة ـ وتطلعهم لخرق الستائر الرسمية الكثيفة . . . واستعمال الوسائل النفسية لتكييف مواقف الأفراد والجماعات في البلاد الأجنبية ، هو إحدى وظائف الممثلين الدبلوماسيين الأمريكيين في الخارج ، والشخصيات المعنية بالسياسة الخارجية في الداخل ، وهو أهم وظيفة لوكالة الاستعلامات الأمريكية التي تشرف على صوت أمريكا ، وبرامج انبائية وثقافية أخرى موجهة للشعوب الأجنبية .

ولأهمية هذه الوسائل التي يطلق عليها مجتمعةً اسم «الحرب النفسية» ، أنشأ ترومان مجلسا أعلى للاستراتيجية النفسية مهمته أن يوصي ببرامج من هذا النوع وينسق العمل .

وأدرك ايزنهاور أن الوسائل النفسية تكون أشد فعالية إذا نسقت مع السياسة العامة فحوّل مجلس الاستراتيجية النفسية لمجلس تنسيق العمليات» .

يظهر أثر ما بالنفس
ولو كان مابالنفس وهماً

يبقى سلوك الانسان مترتبا على ما بنفسه ، بغض النظر عن صواب وخطأ ما بالنفس . فقد يقتنع الانسان بوهم من الاوهام إلا أنه يصدقه كأنه حقيقة ، فهذا الوهم يتسلط على سلوك الانسان ومواقفه إزاء الأحداث . ومن هنا نعلم أن الناس الذين يحملون أوهاما عن أي أمر من الأمور ، تأتي نتيجة أعمالهم وفقا لهذا الوهم ، ويتصرفون طبقا للوهم الذي انطبع في نفوسهم ، كما تصرف العملاق حين شاهد القدمين ، وتوهم أن والدَ الطفلِ الذي هذا شأنُه سيكونُ ضخما جداً ، وعلى هذا التصديق الذي حدث في نفسه ، رأى أن يكون تصرفه أن ينسحب بسرعة من الورطة التي وقع فيها ، فان ما حدث من الوهم في نفسسه وقنع به ، أعقب عنده هذا المسلك المضحك لمن يعرف حقيقة الأمر . ولكن العملاق لم يكن ضاحكاً حين هرب ، بل كان جادا كل الجد .

إن مثل هذا الموقف يمكن أن يحدث لأية أمة من الأمم ، ولأي شعب من الشعوب إذا حمل أفكارا وهمية عن خصمه أو صديقه ، سواء في الاعتماد عليه في غير موضعه كإقدام العملاق

أولاً بكل حماس ، ثم انسحابه المريع مرة أخـرى بكل خزي وعار . وسيظل يقبل ويدبر ما دام ما بنفسه عن الموضوع ليس حقيقة ، وإنما أوهام كونها هو بنفسه ونظراته الذاتية الخاصة ، أو وضعها له اختصاصي بارع . والخَـلاص من الوهـم يتـم بادراك الأمر على وجهه الصحيح ، وإدراك الوجه الصحيح لا يتم إلا بفتح السمع والبصر .

ولكن كيف يمكن أن يفتح سمعه وبصره إن كان في وهمه أن فتح السمع والبصر أخطر من أي خطر آخر ؟ وكم في العالم الإسلامي من الأسوار الوهمية التي تُعيقُ حركتـه ، وكم رأى قدمي الحركة الوهابية ضخمتين ، حين امتلأ رعباً من الفكرة الأولية البسيطة التي تتضمنها في ترك ما لا دليل عليه

ولأبي حامد الغزالي في كتابه المستصفى ، كلام حسـن يتعلق بهذا الموضوع ، ذكره حين بحث الحسـن والقبـح ، والخلاف حولهما . . قال : «الغلطة الثالثة : سببهـا سبـق الوهم الى العكس . . . » الى أن قال : «ومن هذا نفرة الملدوغ من الحبل المرقش . . . ولـكن خلقـت النفـوس مطيعـة للأوهام ، وإن كانت كاذبة . حتى إن الطبع لينفر من حسناء سميت باسم اليهود . والنفرة من المذاهب إذا نسبت الى من يسيء الاعتقاد فيهم ليست طبعاً للعوام خاصة بل طبـع أكثـر العقلاء والمتسمين بالعلوم ، إلاَّ العلماء الراسخين الذين أراهم الله الحق حقاً وقواهم على اتباعه . وأكثر الخلق قوى نفوسهم مطيعةٌ للأوهام الكاذبة . . . وأكثر إقدام الخلـق وإحجامِهـم

بسبب هذه الأوهام ، فإن الوهم عظيم الاستيلاء على النفس ، ولذلك ينفر طبع الانسان عن المبيت في بيت فيه ميِّت فتنبه لهذه المثيرات» .

وهذا الموضوع بحر متلاطم الأمواج علينا أن نتذكر ما مرّت به الأفكار من الغموض الى أن وصلت الى درجة الوضوح والتسخير . فإن المعرفة العامية البسيطة لفكرة ما غير المعرفة العلمية التي تسخر الفكرة لمعالجة مشاكل البشر .

وعلينا أن ندرك كيف يمكن الاستفادة من هذا الموضوع في حماية البشر والمجتمع من الانقياد للأوهام . إن الغزالي ذكر هذا الموضوع وألقى عليه في بضعة أسطر ضوءاً ساطعاً . ولكنَّ الاستفادة من هذا الموضوع ونَقْلَه الى المجالِ العلمي ، في كشف سنة تسخيره لحماية الأمة من الوقوع في الأوهام شيء آخر ، ليس كمجرد وجود الفكرة في ذهن فرد متوقد ، لأن هذا يحتاج الى متخصصين في الموضوع لتشقيق الجوانب المتعددة لتطبيقاته في النشاط البشري .

إن الانسان الذي اكتشف التيار الكهربائي وإمكان إمراره في السلك ، يختلف أمره عن الآلاف المؤلفة من المهندسين الاختصاصيين في استغلال هذا التيار فيما لا يحصى من الأغراض لخدمة الانسان في حاجاته اليومية .

كـذلك موضوع تسلط الأوهام على البشر حين تحول بينهم وبين رؤ ية مشكلة ما على حقيقتها .

يذكر راسل [1] كيف يُشِلُّ الخوفُ النـاشيء من الوهـم المتسلط ، جهدَ الكائن الحي حتى في مجال الحيوان . يذكر عن دابة كانت في مكان وقد حدث أن شبت النيران فيه ، وبـذل المشرفـون على اطفـاء الحـريق جهـودا شاقـة في انقـاذ الدابـة واخراجها من المكان الذي هي فيه ، ولم يكن الجهد صعبا إلا لأن الدابة لا تريد الخروج لما سيطر عليها من الوهم واصابها من الخوف . وراسل على اسلوبه الساخر ، لا تفوته الفرصة في أن يعمم هذه القاعدة ، التي على أثرها قامت الدابة بتعطيل جهد الذين سيسعـون لانقاذهـا . قال راسـل : ان الخـوف الناشيء من الاوهام المتسلطة على عقول ساسـة العصر، الذين يشرفون على هذا العالم ، وهم لا يقلون تأثـراً بالأو هـام عن الدابة ، يمنعهم من الخروج من المشاكل الوهمية المحيطة بهم والتي تعرضهم لأخطار متزايدة على مر الزمن» .

وربما لا يتيسر لكل أحد أن يرى الدابة محصورة ضمن النيران تمتنع عن الخروج منها ، ولكن أيسر من ذلك أن نرى الدابة تُشد من امام وتُدفع من الخلف لاجتياز ساقية ، أوعبور جسر أو السير في مدخل ما ، فلا تتقدم لما تخشى من وقوعها في

---

(١) في كتابه هل للانسان من مستقبل ص ٣٣ . طبـع القاهـرة الـدار القومية .

خطر ماحقٍ .

ويمكن أن نرى مجتمعاً بأكمله يصاب بمثل هذه الأوهام . وفي الواقع إن الغزالي كان بارعا حين قال : «وأكثر إقدام الخلق وإحجامهم بسبب هذه الأوهام ، فان الوهم عظيم الاستيلاء على النفس» .

ونحن وإن كان يصعب علينا إخراج القاعدة إلى حيز المعقولية ، إلا أن وراء إظهار القاعدة صعوبة أخرى أشد وعورة ، وذلك حين نبدأ في تطبيق القاعدة على الجزئيات من المسائل المعنية التي تدخل تحت القاعدة .

يقول في ذلك ابن تيمية «يسهل على الناس التسليم بالقاعدة على عمومها . ولكن إذا مست القاعدةُ الجزئياتِ التي تخصهم ، تغير موقفهم ولم يقبلوا تفصيل ما قبلوه عموما» .

وما أحوجنا إلى الحذق في كشفِ الأوهام التي توقف حركة العالم الاسلامي أمام ممرات معينة ـ كوقوف الدابة لا ينفعها الشد ولا الدفع ـ لتتمكن من العبور بأمان من بين الأخطار التي يتخيلها في وهمه ، بينما في الواقع لا وجود لها إلا في نفسه . وحسبك مراجعة ما لقيه المصلحون من العنت ، والبطء الشديد ، حتى وصل الناس الى درجة إمكان التساهل مع أفكارهم أو قبولها .

ومع ذلك لا أشعر أني دللتك على خريطة أو اعطيتك «بوصلة» تخرجنا من الأوهام التي نعيش فيها وتجعل سيرنا في أمان ، في هذه الغابة التي لا تزال تعمر بالغيلان ، لأننا لم نملك بعد البصيرة الكافية .

إن التبصر في الحياة هو المسنونة الزرق كأنياب أغوال ، وكم نتعلق بأنواع من القش لتنقذنا ، بينما التبصر هو سفينة النجاة ، وبيننا وبين التبصر أهوال ترعبنا . كيف لا يكون كذلك ونحن نعتبر التبصر قنطرة اللادينية ؟ فكيف يمكن أن نعبر مثل هذا الجسر مهما كان الشد من أمام والدفع من خلف ؟ ما دام المربون في العالم الاسلامي تهددهم مثل هذه الأخطار الوهمية ؟ ويوحون إلى طلابهم الخوف والرعب الذي ورثوه . وحين نرى مثل صاحب مجلة المسلمون الدكتور سعيد رمضان يضع في مجلته [1] عنوانا مثل :

«همسات ... في أذن قادة الرأي والفكر في ديار الاسلام» .

ثم يَضع تحت هذا العنوان مثل هذه الكلمات الآتية : (إن ثورة اجتماعية توشك أن تعم العالم الاسلامي كله . إننا لا نشك في هذا لحظة .. بل نراها كما نرى الشمس الساطعة . وسيكون عنوان الثورة «حرية الفكر والضمير» . فاذا لم تحملوا أنتم هذه الرايات وأنتم أحق بها من غيركم فسيحملها غيركم ....

ثم يقول : لا تستهينوا أيها السادة بهذه الكلمات فان الشعوب الاسلامية سائرة إلى هذا المصير وعلى هذه الطريق ولن يثنيها عن ذلك شيء ... فاحذروا .. احذروا أن تفلت

---

(١) المجلد السابع ص ٧٧٠ عام ١٩٦٢ .

الرايات من أيديكم) .

نجد مثل هذا الكلام تحت عنوان همسات في أذن قادة الرأي والفكر في ديار الاسلام . أي أن الحديث عن هذا لم يتجاوز بعد الهمسات فقط وفي أذن البعض أيضا وفي أسلوب خطابي .

حقاً إن الأمر يحتاج إلى همس ، إذ أن ثلوج جمود الفكر وحبس الضمائر لم يذبها بعد شعاع التبصر والاعتبار «**فاعتبروا يا أولي الابصار**» الحشر ـ ٢ .

ما بالنفس يتفاوت في الرسوخ

قلنا فيما سبق إن التغيير الذي ينبغي أن نهتم به هو الجانب الذي يقوم به القوم من تغيير ما بالأنفس . فاذا كان مجال الأقوام في التغيير هو مجال ما بالأنفس ، فعلينا ان نتبصر في هذا المجال الذي يخص الانسان من التغيير . إن ما بالنفس يختلف في الرسوخ ولذلك كان تأثيره على ما بالقوم متفاوتا في القوة والضعف .

وهناك عوامل لترسيخ ما بالنفس منها ، التكرار في العرض والشرح ، والممارسة العملية لها في الحياة التطبيقية .

ويمكن أن يقارن الموضوع بمثال آخر . فان جسم الانسان مركب من أعضاء تعمل لا إراديا ، مثل عمل القلب والرئتين والمعدة وإفرازات الغدد ، ولو أن عمل هذه الأعضاء كان إراديا ، لكان الجهد الذي تتحمله الارادة الواعية والفكر جهدا شاقا ، ولما أمكنه التفرغ إلى التفكير في مجالات أخرى تتعلق بنمو الانسان الفكري . ولكن الله سبحانه وتعالى ، اعطى لجهاز الفكر عند الانسان تخفيفا في المهمات ، حين جعل عمل كثير من الاعضاء آلياً .

كذلك في مجال ما بالنفس ، يمكن أن نلاحظ أن النفس تقوم بهذه العملية ، من جعل بعض الأفكار تعمل عملها آليا

وذلك حين ترسخ وتتعمق فتصير هذه الأفكار تعمل آلياً دون الحاجة إلى استحضار فكر . فمثلا حين نتكلم ونعبر عن المعاني بالعبارات ، ويتداخل في هذا العمل الوعي والآلية ، فان استحضار الكلمات يكاد يكون آليا دون جهد فكري ، كلما كانت الكلمات راسخة ومستخدمة كثيرا ، وهذا متفاوت أيضا .

وإن الانتباه الى مجالات ما بالأنفس من الوعي ، وما تجاوز الوعي ، إلى أن صار جزءا عميقا في النفس يعمل وكأنه مستقل عن الوعي . إن الانتباه إلى هذا التفاوت ، وعوامل الترسيخ، وملاحظة أثر مرحلة الطفولة في ترسيخ الأفكار والمفاهيم ، وما تعارف عليه الناس من أن العلم في الصغر كالنقش في الحجر ، إنما هو مبني على ملاحظة لها أثرها . وذاك الانتباه يفتح أمامنا آفاقاً في مجال تغيير ما بالنفس . فالخبراء الذين لاحظوا تجارب البشر ، عندهم من المعرفة بهذه الأمور ما ليس عند غيرهم ، والرسول صلى الله عليه وسلم ضرب لنا مثلا في كيفية ترسخ الفكرة ، أو تمكنها حتى تصير ملكة ، تتولد منها أعمال الانسان وواقع المجتمع :

(عن حذيفة عن رسول الله ﷺ قال : «تعرض الفتن على القلوب كالحصير ، عودا عودا ، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء ، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير على قلبين : على أبيض مثل الصفاة فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض ، والآخر أسود مُرْ بَادًّا كالكوز

مُجَخِّياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً» . رواه مسلم . قال ابن جرير : فاخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الذنوب إذا تتابعت على القلوب اغلقتها ، واذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من الله تعالى والطبع ، فلا يكون للايمان اليها مسلك ، ولا للكفر عنها مخلص ، فذلك هو الختم والطبع الذي ذكر في قوله تعالى : «ختم الله على قلوبهم» .

ونظير الختم والطبع على ما تدركه الأبصارَ من الأوعية والظروف التي لا يوصل إلى ما فيها الاَّ بفض ذلك عنها ثم حلها ، فكذلك لا يصل الايمان إلى قلوب ، من وصف الله أنه ختم على قلوبهم وعلى سمعهم ، الا بعد فض خاتمه وحل رباطه عنها)[1] .

هنا حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، يضرب المثل في الرسوخ في جانب كل من الخير والشر ، إلا ان الختم والطبع استعمل في جانب الشر ، والخطأ الذي ترسخ وتعلق بالقلب ، فضرب المثل باشياء محسوسة للاشياء التي لا تحس أو للأمور المعنوية ، وذلك بذكر مثل الحصير ، وكيف تعرض الأعواد عند نسجها عودا عودا ، فبناء النفس كذلك إنما يتم خلال الزمن ، بعرض الأفكار عليها بوسائل مختلفة فكرة ، فكرة . والقلب الذي يتقبل الفتنة والشر ، تنكت فيه نكتة سوداء ، والذي يرفض يبقى أبيض لا تضره فتنة . وكذلك العرض

(١) تفسير ابن كثير الآية السابعة من البقرة .

المستمر المتتابع على القلوب كنسج الحصير . هذا الحديث في مجال كيف يرسخ ما بالنفس ، ويصل رسوخ ما بالنفس الى درجة النسيان ، ولكن هذا النسيان والغياب عن الوعي لا يجعله يكف عن التأثير على عمل الانسان وسلوكه بل يبقى مؤثرا ولو كان خارجا عن الوعي .

وهنا يمكن أن يشبه ما يحدث في النفس ـ من أن النفس تحول بعض الأفكار إلى الأعماق ، مما يجعل هذه الأفكار تعمل عملها آليا ـ بما يحدث في بعض أعضاء الجسم عند الانسان التي تعمل آليا ، كذلك الافكار المترسبة في الاعماق تعمل آلياً وتستجيب للأحداث والمثيرات استجابة آلية ، ولا يشترط أن يكون كل ما ترسخ صواباً بل الخطأ أيضا يترسخ ، وقد يكون الصواب فيه قليلاً .

ونبش هذه المفاهيم المترسبة وإخراجها إلى حيز الوعي ، وإجراء التغيير اللازم عليها عملية ليست خارجة عن طوق الانسان ، لأن ذلك من المهمة التي أوكلها الله إلى الانسان لا كفرد ، بل كقوم وكمجتمع .

إن تغيير ما بالنفس ، سواء كان في مجال الوعي أو كان مترسبا منسيا بكل محتوى النفس الظاهر والباطن ، إن هذا التغيير من مهمة الانسان ، وكلما كشف سنن التعامل مع النفس كان قادرا على إحداث التغيير . فمن هنا تتأكد الحاجة الى ضرورة تحصيل علم سنن تغيير ما بالنفس .

وفي مجال أهمية الطفولة في ترسيخ العقيدة ، حديث

رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه . . .» وقد سبق أن بينا معنى الفطرة . وأما ان الابوين يقومان بمهمة ترسيخ العقيدة ، فان الطفولة تمتص هذه العوائد والمفاهيم والقيم ، تمتص مالا ينطق به الأبوان أو المجتمع ، مما يستنبطه الطفل من الأذواق والاستحسان والاستقباح لأمور كثيرة لا يشعر بها الطفل ، وإنما يتشربها تشربا ، ويوحى بها إليه إيحاء ، مما يؤثر في سلوكه في كبره دون ارادة منه ، ولا سيما في اللحظات التي لا يتيسر فيها إعمال الرأي ، وفي اللحظات الحرجة التي ينبغي فيها أن يتخذ قرارا ، أو يختار امرا ، فهنا عوامل السوابق التاريخية الماضية تؤثر في اتخاذ الاتجاه المعين ، لأن دخل الارادة فيه قليل ، أو ينعدم . فهذا معنى الختم والطبع ، حين يحدث الشلل للفكر الواعي ويعجز أن يسيطر على تصرفه ، فيستلم الزمام ما ترسب من الأفكار، وهذا ما يسمى بالعواطف والانفعالات. فالعواطف هي الأفكار المترسبة ، والانفعالات هي آثارها العملية . وعلينا أن نعرف أن الشخص حين يقوم بعمله ، فهذا العمل الذي يقوم به ليس مصدره فقط الفكر الواعي ، وإنما يشترك فيه أيضاً الأفكار المترسبة التي نسيت ، ولكنها لم تُفقد بل ظلت تؤدي دورها بأرسخ مما كانت .

وقد تنبه ابن خلدون إلى شيء من هذا حين تحدث عن اكتساب ملكة البيان العربي والشعر ، قال : «فمن قل حفظه أو عَدِمَ لم يكن له شعر وإنما هو نظم ساقط ، واجتناب الشعر

أولى بمن لم يكن له محفوظ . ثم الامتلاء من الحفظ وشحذ القريحة للنسج على المنوال يقبل على النظم وبالاكثار منه تستحكم ملكته وترسخ . . . » . وموطن الشاهد من كلام ابن خلدون ليس هذا بل سيأتي وهو قوله : «وربما يقال إن من شرطه نسيان ذلك المحفوظ ، لتمحى رسومه الحرفية الظاهرة ، إذ هي صادة عن استعمالها بعينها ، فاذا نسيها ، وقد تكيفت النفس بها ، انتقش الاسلوب فيها كأنه منوال يأخذ بالنسج عليه بأمثالها من كلمات أخرى ضرورة» [١] .

وما يقوله ابن خلدون لا ينطبق على الشعر فقط ، بل على كل علم من العلوم إذا أراد الانسان أن يكسب ملكة فيه .

وكذلك إتقان لغة التخاطب إنما يكون في عهد الطفولة ، واتقانها بعد الكبر كأهلها أصعب ، فهذه كلها راجعة إلى سنن تغيير ما بالنفس . فكما أن أهل اللغة الواحدة يتكلمون لغة واحدة ، كذلك أهل الثقافة الواحدة والنمط الموحد في التفكير ، يفكرون باسلوب واحد من التفكير ، وكذلك أذواقهم وما يميلون إليه وما يكرهونه وما يقدرونه وما لا يبالون به . وكما بين الأفراد فروق فردية ، كذلك بين الأمم والمجتمعات ، إلا أن مصدر الفروق مختلف ، إذ مصدره في الأفراد الفطرة والاستعداد الأوّلي ، بينما في المجتمعات مصدره مقدار استغلال هذه الاستعدادات . فالأول موهوب والثاني

---

(١) المقدمه ص ٥٠٧ .

مكسوب . والخلط بينهما يكون سبباً لتبني العصبيات التي وصفها الرسول صلى الله عليه وسلم بأنها منتنة .

والفطرة الموهوبة للأفراد من الذكاء تتفاوت ، وهذا التفاوت فطري موجود في كل مكان بين الأفراد ، في كل المجتمعات ، وحتى بين الأخوة من متوسطي الذكاء ومن هم دون ذلك أو فوقه . ولكن المجتمعات ليست هكذا بالفطرة ، بل ما بين المجتمعات من الفروق إنما ترجع إلى مواريثهم المكتسبة من الثقافة ، فبهذا يتفاوتون . ويمكن لكل مجتمع أن يرفع أو يغير من مواريثه الاجتماعية . والمجتمع الواحد يختلف أفراده بين من نشأ في المدينة والقرية ، والطبقة المعينة ، وإن كانت وسائل الثقافة الآخذة في التطور والانتشار تقلل من الفروق . فكل مجتمع فيه من الأفراد نسبة معينة من الممتازين والمتوسطين والمقصرين بالفطرة . وما يمكن أن يطرأ على مجتمع ما من رفع المستوى يمكن أن يطبق على كل المجتمعات .

ولا توجد بين المجتمعات فروق في الفطرة وانما فروق في الثقافة المكتسبة ، وهذه تقبل التغيير ارتفاعاً وانخفاضاً . لهذا كما يمكن أن يكون تطور مجتمع ما إلى الأمام ، يمكن أن يكون تغيير مجتمع آخر إلى الوراء . كما يمكن أن يحدث تغيران في آن واحد في مجتمع واحد ، كأن يحدث تغيير في جانب إلى الأمام ، وتغيير آخر إلى الوراء ، وتفيد معرفة هذا حتى يمكن تمييز ما فيه تقدم وتأخر .

إن هذه المواضيع لم تصر في العالـم الاسلامـي علماً تطبيقياً ، وإن كان شيء من ذلك ، فهي نظرات عنـد أفـراد قلائل لم يصلوا بعد الى درجة سد فرض الكفاية فى الأمة . ولا بد أن يصل عدد هؤلاء علماً وعملاً إلى ما يسد حاجة الأمة ، حتى يمكن اختزال زمن التغيير إلى أدنى حد .

ولكن إلى الآن لم تصح عندنا الفكرة نظرياً ، فضلا عن أن نستخدم ذلك في سبيل تغيير ما بالأنفس لنغير ما بالمجتمع ، ولا مؤسسات تقوم بمهمة التغيير ومراقبة السير على أساس علم منهجي . ويحول دون ذلك أفكار معينة مترسبة في أعماقنا ، اعتماداً على القضاء وتحقيراً لقدرة الانسان وجهده .

ويمكن أن نقرب الفكرة قليلا ، إذا قارنا عملية التغيير فيما بالانفس بعملية تعليم القراءة والكتابة . فلـو ترك تعليم المجتمـع القـراءة والكتابـة ، إلى مجهـود كل شخص دون أن تكون مؤسسات لتعليم أطفال الأمة ، فان الفوضى ستحل . وكذلك ينبغي أن يخضع تغيير ما بالأنفس لمؤسسـات . وإلى الآن يحدث مايحدث عندنا على أساس الصدفة ، دون تحـول ذلك إلى علم منّهـج واضـح . لهـذا يظهـر عدم التـوازن في المجتمع وبطء نموه حتى في المشاكل التي صارت خاضعة للسنن بوضوح في مجتمعات أخرى . والسبب ؛ أن الأمة لم تحصّل بعـد ملـكة تغيير ما بالأنفس ، ولـم تملك ما يسـد فرض الكفـاية . ونقص ملـكة التغيير ، مثـل نقص ملـكة البيان والشعر ، فلا يمكن تحصيل ملكة عملية تغيير ما بالأنفس ـ كما

لا يمكن تحصيل ملكة البيان والشعر ـ الا بممارسة هذا الفن ؛ وهو النظر في سنن الماضين وما حدث للأمم من تغيير بطيء أو سريع خلال التاريخ . ونحن إلى الآن لا ندرس التاريخ على هذا الأساس أو القصد ، وإن كان القرآن يلح علينا في ذلك .

وفقدان هذه الملكة مشكلة عامة في الأمة في مختلف طوائفها ، لأن هذا المرض عام إذ هو مرض مجتمع لا مرض طائفة معينة ولا مرض فرقاء . ولو أن هذا النظر صار بضاعة للمجتمع ، لتمتع به من يعيش في هذا المجتمع مهما اختلفت نظراتهم .

وهذا ما يفسر تنازع من هم أقرب لبعضهم في النظر ، في المجتمعات المتخلفة ، ومن هم على هدف واحد وأيديولوجية واحدة . بينما المجتمع ، الذي حصل لديه ملكة فن التغيير ، لا يبلغ النزاع فيه بين المتضادين في وجهات النظر ، ما يبلغ النزاع فيه بين المتفقين في وجهات نظرهم ، في الأمة التي لم تمتلك بعد مثل هذه الملكة . وواقع البلدان المتخلفة أو التي تسمى تفاؤلاً نامية ، أصدق شاهد لمن أمكنه أن يتأمل .

وابن خلدون لاحظ سنة التغيير بوضوح في أعمار الدول ، وإن كان يفهم من تفسيره لها أنها حتم ، ولكن الأمر ليس كذلك ، ولا سيما وقد ملك الانسان من وسائل التربية ما يطوع عملية صياغة الانسان .

ولابن خلدون العذر في ان تكون عباراته غير دقيقة ،

حيث جعل مرد ذلك إلى العوائد المترسخة ، التي يمكن ان تمثل ما نطلق عليه نتائج ما بالأنفس . قال في «فصل إن الدول لها أعمار طبيعية كما للاشخاص» . وبعد أن تحدّث عن عمر الأفراد ، تحدث عن عمر الدول فقال : (إن الدولة في الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال ، والجيل هو عمر شخص واحد ، والعمر الوسط يكون أربعين . وعلل ذلك بأن الجيل الأول ، لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها . . والجيل الثاني تحول حالهم بالملك والترفه من البداوة إلى الحضارة . أما الجيل الثالث فينسون البداوة والخشونة كأن لم تكن فيصيرون عيالا على الدولة . فهذه كما ترى ثلاثة أجيال فيها يكون هرم الدولة وتخلفها .

ولهذا كان انقراض الحسب في الجيل الرابع كما مر في أن المجد والحسب إنما هو في أربعة آباء وقد اتيناك فيه ببرهان طبيعي كافٍ مبني على ما مهدناه من قبل من المقدمات . فتأمله فلن تعدو وجه الحق إن كنت من أهل الانصاف .

وهذه الأجيال الثلاثة عمرها مئة وعشرون سنة على ما مر ولا تعدو الدول في الغالب هذا العمر . بتقريب قبله أو بعده إلا إنْ عرض لها عارض آخر من فقدان الطالب فيكون الهرم حاصلا مستولياً والطالب لم يحضرها ولو قد جاء الطالب لما وجد مدافعاً «فاذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون»)[1]

---

(١) المقدمة صفحة ١٤٨ طبع دار التحرير القاهرة ١٩٦٦ .

وأطال ابن خلدون هذا البحث ، ومهما يكن فان سبب ذلك راجع الى تغيير ما بالأنفس من النظر إلى الأمور . ولقد وضح ذلك فقال : «إذا كان الهرم طبيعياً في الدولة ، كان حدوثه بمثابة حدوث الأمور الطبيعية كما يحدث الهرم في المزاج الحيواني . وقد يتنبه كثير من أهل الدولة ممن له يقظة في السياسة فيأخذ نفسه بتلافي ذلك . . . ويحسب أنه لحقها بتقصير من قبله من أهل الدول وغفلتهم، وليس كذلك فانها أمور طبيعية للدولة، والعوائد هي المانعة له من تلافيها». وقد بيَّنا أن هذا صحيح في آخر الأمر ، ولكن هذا يمكن أن يُمنع حدوثه إذا أُخذ بأسبابه وسيطر عليها البشر ، ولا سيا قبل أن يحل الطبع على القلوب . والذي يقرب هذا المعنى كون ابن خلدون نسب الأمر الى العوائد . والعوائد قابلة للتغير أحياناً طبيعياً وأحياناً صناعيا . وهذا ما خفي على ابن خلدون ، مما أمكن تفسير اتجاهه الى الحتمية .

وقال ابن خلدون عن العوائد « . . . وللعوائد منزلة أخرى طبيعية ، فان من أدرك مثلاً أباه وأكثر أهل بيته يلبسون الحرير والديباج ، ويتحلون بالذهب في السلاح والمراكب ، ويحتجبون عن الناس في المجالس والصلوات ، فلا يمكنه مخالفة سلفه في ذلك ، إلى الخشونة في اللباس والزي والاختلاط بالناس . اذ العوائد حينئذ تمنعه وتقبح عليه مرتكبه . ولو فعله لرمي بالجنون والوسواس في الخروج عن العوائد دفعة ، وخشي عليه عائدة ذلك وعاقبته في سلطانه .

وانظر شأن الانبياء في إنكار العوائد ومخالفتها لولا التأييد الالهي والنصر السماوي .

وربما يحدث عند آخر الدولة قوة توهم أن الهرم قد ارتفع عنها ويومض ذبالها إيماضة الخمود ، كما يقع في الذبال المشتعل فانه عند مقاربة انطفائه يومض إيماضة تُوهِم أنها اشتعال وهي انطفاء .

فاعتبر ذلك ، ولا تغفل عن سر الله تعالى وحكمته في اطراد وجوده على ما قدر فيه و «لكل أجل كتاب» [١] .

وما يقول عنه ابن خلدون : بأنه عوائد تمنع تلافي نتائجها ويعتبرها طبيعة أخرى بحيث يرمي من يخرج عنها بالجنون والوسواس ، وضرب المثل في ذلك بلباس الذهب والديباج . . ولكن ما بالك بأنماط التفكير والنظر إلى السكون والحياة والمجتمع ، هذه الأنماط تتحول إلى عوائد ، والانتباه إليها أصعب وأدق وبلواها أعم . وهذا هو الذي حدث للفكر الاسلامي في جموده خلال العصور وتوارثوه كابراً عن كابر ، وكل من خرج عليه اتهم بالمروق .

وابن خلدون يضرب المثل في الدولة التي قدر عمرها بثلاثة أجيال ، وكذلك المجد والحسب . فما بالك بدين عالمي يضم بين أحشائه الدول المتعاقبة ، حين ينظر اليه بهذا المنظار ، منظار أثر العوائد ، وما يحدث من تغيير على طول

(١) المقدمة ص ٢٥١ .

الزمن من غير ان يشعر الناس به ، ويتوارثها عشرات الأجيال مما يقلب كثيراً من الامور عما كانت عليه سابقاً .

فان كان ابن خلدون يقول : إن الجيل الثالث ينسى عهد الخشونة والبداوة كأن لم تكن . . . فما بالك بنسيان أنماط التفكير المتفتح للحياة . فلو أن مجتهداً اجتهد مثل اجتهادات عمر بن الخطاب ، لما أمكن تحمل ذلك ، لا لأن الزمن لم يعد في حاجة إلى اجتهاد ، ولا لأن مقتضيات ذلك الاجتهاد لم تحدث .

وهذا التغيير البطيء ، تخفى على الناس كيفية حدوثه فيظنون أن الأمر لم يتغير ، ولكن يرون النتائج تغيرت فيقعون في حيرة . ولا يدركون تفسير ذلك .

ومن أكبر المشاكل التي تعترض المسلم في هذا الموضوع ، توهم الناس انهم في أنماطهم الفكرية مثل ما كان عليه الناس في عهد الصحابة ، فيحاولون أن يروا في الرماد ناراً وفي الجمود حركة . فلايميزون ما حدث من تغيير في الفكر والنظر ، فيقيسون أنفسهم بهم دون شعور ، وهذه مصيبة كبيرة وعقبة كؤود ، تحول دون رؤية الأمراض التي تصاب بها المجتمعات .

وليس هنا مجال تفصيله الآن وإنما نشير إليه إشارة ، وقد ذكر ابن خلدون ذلك فقال : «ومن الغلط الخفي في التاريخ ، الذهول عن تبديل الاحوال في الأمم والأجيال بتبدل الاعصار ومرور الأيام ، وهو داء دوي شديد الخفاء . إذ لا يقع إلا بعد

أحقاب متطاولة ، فلا يكاد يتفطن له إلا الآحاد من أهل الخليقة . وذلك ان احوال العالم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج واحد مستقر ، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال .

وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار ، كذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول «سنة الله التي قد خلت في عباده» غافر -٨٥ - [١] .

وهذا تأويل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في أوان ذهاب العلم ، والصحابي لم يكن يفهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يذهب العلم ، وكذلك لم يفهموا كيف نكون كالقصعة ، يتداعى عليها الأكلة . أما نحن اليوم فلا نفهم كيف يحصل العلم ، ولا كيف ننقذ القصعة المستباحة .

ذلك الصحابي لم يكن يقدر أن يتصور كيف يذهب العلم ، واليوم نتعب التعب كله في إثبات وجود علم يخرج المسلمين مما هم فيه من التيه .

وكذلك حديث القصعة وتداعي الأكلة إليها ، فان الصحابة عجزوا أن يفهموا كيف يمكن أن يتم ذلك ، وكل ما خطر في بالهم من تفسير للموضوع ، أن يكون سبب ذلك قلّة في عدد المسلمين ، حين قالوا أوَمنْ قلّة يومئذ يا رسول الله ؟

---

(١) المقدمة ص ٣٤ .

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم بين أن العدد حين التداعي على القصعةيكون كثيراً . ولكن هناك شيء آخر يجعل الناس كغثاء السيل . إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يرى المستقبل من خلال السنن ، ولم يكن كل الصحابة كذلك .

وليس هناك نظر اجتماعي تاريخي سنني ، مثل نظر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المشكلة الاجتماعية . وكما يقول مالك بن نبي كان رسول الله يقرأ التاريخ قبل أن يقع ، ويحذر من الوقوع فيه ، على أساس أن الأمر على نظام وسنن ، سواء في الوقوع في الجهل والقصعة المستباحة أو الخروج منها .

إن هذا النظر السنني هو ما يحتاج إليه شباب العالم الاسلامي ، إذ أن عدم وضوحه يحشر الأمور المختلفة في ميزان واحد ، بينما يبعد الامور المتشابهة عن بعضها . فيقع المرء في حيرة فيجعلنا مرة مثل الصحابة ، ومرة مثل الجاهليين . ولا يدرك ما يميزنا عن كل واحد منهم من عناصر التخلف .

وقد بحث هذا مالك بن نبي ، حين بحث عن إنسان الحضارة ، وإنسان ما قبل الحضارة ، وإنسان ما بعد الحضارة ، وبين أن مشكلة إنسان ما بعد الحضارة ، أعقد من مشكلة ما قبلها .

وأهمية هذا الموضوع هو الذي جعل ابن خلدون يقول : «الذهول عن تبدل الاحوال الذي هو داء دوي شديد الخفاء لا يكاد يتفطن له إلا الآحاد من أهل الخليقة» . وهذا هو الذي يجعلنا لا نقدر على كشف المشكلة التي نعيشها .

انني أجدني اشعر بضيق شديد من خفاء هذه الأمور وعدم وضوحها ، وأنها لم تصر بعد بضاعة مفهومة متداولة . وهذا الخفاء يعوق حركة التقدم في الاصلاح لما يحيط به من غموض . فما لم نسيطر على خارطة تغيير ما بالنفس ، وما لم نتمكن بوضوح من سنة التغيير ، وما ينبغي أن نغيره وما ينبغي أن نحذفه ، وما ينبغي أن نضيف إليه ؛ سنظل نسير في طريقنا بعفوية لا قصد فيها ، ونحافظ على أفكار تعوق تقدمنا ، وننبذ أفكاراً ونعاديها بينما لا غنى لنا عنها . مثال ذلك عدم مبالاتنا بعلم تغيير ما بالنفس ، هذا فضلاً عن إعراضنا عن عبر التاريخ التي توضح لنا ما ينبغي أن نغيره . فهنا نحتاج الى علمين ، علم تغيير ما بالنفس ، وعلم آخر وهو ما نميز به ما ينبغي أن نغيره مما ينبغي أن نبقيه . فهذا النقص هو الذي يجعل سير حركة المسلمين بطيئاً ، مثقلا بالآصار والأغلال التي تحول بينهم وبين أن يروا المستقبل في ضوء الماضي . إن الحيرة نتيجة الغموض ، والحيرة هي البرزخ الذي نسير فيه في أيامنا هذه .

إن اندفاع الانسان للحركة المجدية ، مرهون باقتناعه أن لكل مشكلة طريقة لحلها . فكذلك المسلمون لا يمكن لهم أن يتحركوا بجدية لتغيير واقعهم ، ما لم يقتنعوا أن مشكلتهم تخضع لقوانين وسنن .

أما إذا بقي لديهم شعور أن المشكلة لا تحل إلا بالمهدي ، أو بأن الزمن شارف على الانتهاء ، فان المشكلة

تبقى دون حل ، بل تزداد تعقيداً .

ربما يتضايق من هذا الوصف بعض القراء الكرام ، وربما شعروا أنني استخف بذكائهم ، وينفون عن أنفسهم انتظار المهدي ، أو أن يروا أن الزمن أشرف على نهايته ، ويدعون أن هذا إيمان العوام . ولكن ما الخطة التي عند هؤلاء القوم الكرام لتغيير ما بأنفس هؤلاء العوام ، حتى يرتفعوا عن مرتبة العوام إلى مرتبة من يشعرون أن سعيهم ليس سدى ولا عبثاً ؟ .

وما لم نتمكن من معرفة تغيير ما بالنفس ، ومعرفة ما ينبغي أن نغير كماً وكيفاً ، فسنظل ننتظر المهدي فعلا وإن نفينا عن أنفسنا ذلك نظرياً . إن الايمان بفكرة ما - بشكل منحرف - يؤدي إلى مواقف سلبية .

ما زلنا في بحث تفاوت ما في النفس بالنسبة لرسوخه . وهنا أريد أن أوجز جانباً من هذا الموضوع عما بالنفس . إن الفكرة هي التي بالنفس ، ولكن بعض الأفكار التي بالنفس ، لا يشعر بها صاحبها . فأفكار الانسان ليست حاضرة في كل لحظة ، بل منها ما يحضر عند تداعي الأفكار ، ومنها ما يحضر بالتذكر ، ومنها ما لا يتمكن صاحبها من استحضارها مهما كد ذهنه . ومع ذلك تدخل هذه الأفكار المنسية في توجيه سلوك الانسان كما سبق أن أشرنا إليه .

وهنا يمكن أن ننظر الى الفكرة على أنها تمر في مراحل لدى دخولها نفس الانسان ، وذلك من أول ما تصل الى النفس الى

أن تتغلغل فيها وتترسخ . والفكرة بذاتها لم تتغير ولكن الذي تغير مقدار تغلغلها في النفس ، ومقدار نتائجها في الواقع . ويمكن أن نمثل الفكرة بالانسان ولو لم يكن التشابه كاملاً . فالانسان في مرحلة ما يكون جنيناً ، ثم يكون طفلاً ، ثم فتى ثم كهلاً . . . الخ .

ففي كل مرحلة يسمى باسم وهو في الأصل واحد . وكذلك الفكرة تمر بمراحل من نظرية وظن الى إدراك وعلم فالى سلوك وخلق . . . الخ .

إن الفكرة حين تتعمق في النفس تكون مصدراً للأخلاق ، وما الخلق إلا السلوك الناشيء عن أفكار متعمقة ثابتة راسخة في النفس .

وينبغي أن يلاحظ أن الفكرة يمكن أن يوحى بها ، فتكون مصدراً للأخلاق دون أن تمر بالوعي الشعوري ، كما عند الأطفال والعوام . وحين نفهم كيف يحدث هذا وما وسائل ذلك على أساس واضح . فمثل هذا الفهم هو الذي يجعل حماية الأخلاق بل إنشاءها بواسطة العلم ممكناً ، لأن الخلق سلوك ظاهر ، يكمن وراءه دوافع رسخت في نفس الانسان ، قد ننتبه إليها وقد لا ننتبه . ولن يصير ذلك علماً ما لم ننتبه الى ذلك ونحدده . وإن الذين يظنون أن الأخلاق لا تخضع للعلم ، وأن العلم لا يؤثر فيها ، لا يمكن أن يعترفوا بإمكان حماية الأخلاق فضلاً عن إنشائها ، كما أنهم لايكونون شاهدوا صلة العلم بالأخلاق .

وقد تكون الفكرة ـ كفكرة أولية ـ موجودة عند الانسان ، مثل الفكرة الموجودة عند الانسان عن مشاهدة سقوط الأجسام إلى الأرض . فهذه كظاهرة ، يدركها كل الناس ، بل ربما لا يخطر لهم أن يفكروا فيها ، وتذكيرهم بها يكون غريباً عليهم . فأصل الفكرة موجود عند كل فرد ، ولكن فكرة العالم الفيزيائي عن سقوط الأجسام غير ما عند الانسان العادي . فالعالم يمكن أن يرى في الموضوع عنصر الزمان والمكان والسرعة والكتلة وآثارها ، ويمكن أن يحسب قوة السقوط والاختراق ، ويمكن أن يبدع على أساسها أعمالاً مدهشة كبناء الجسور والطائرات والقذائف . ويمكن أن يمثل سقوط الأجسام ، ومعرفة كل فرد بأصل الفكرة ، وتفاوتهم في معرفة دقائقها وقوانينها ، وما يترتب على ذلك ، يمكن أن يقارن هذا ، بفكرة الأخلاق في أصل المعرفة المجملة من قبل كل الناس . فكل الناس يسمعون ويتكلمون بكلمة الأخلاق ، ولكن ما يمكن للعالم أن يكشف من قوانين وسنن نشأة الأخلاق وقيمها ـ كما فعل (هادفيلد) في كتابه : (تحليل نفسي للخلق) ـ إن معرفة هذا الانسان لسنن الأخلاق ، لا يمكن أن تقارن بمعرفة الانسان العادي . وليس معنى هذا أن الانسان العادي لا يمكن أن يملك أخلاقاً متينة . لا ليس هذا المراد ، ولكن الانسان العادي ليس في طوقه أن يحمي الأخلاق حماية علمية ، ولا يمكن أن يملك ذلك ، كما يمكن أن يكون بين الرجلين في المعرفة بونٌ لا يمكن أن يقارن بينهما ،

بل ما يتطلع إليه الانسان العالم من الأمل في المستقبل لتسخير هذه السنن لا يتيسر لغيره . وأكثر الناس عندهم أصلٌ لفكرة «قل هو من عند أنفسكم» آل عمران - ١٦٥ - . ولكن هذا المفهوم الذي عندهم عن الآية غير راسخ كما أنه غير واضح لهذا لا أثر له على سلوكهم .

وهنا نذكّر مرة أخرى بحديث زياد بن لبيد في دفع الشبهة مما يمكن أن يقال هل كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم هذا . إن تأمل حديث زياد بن لبيد يجيب عن هذا السؤ ال كما يجيب حديث القصعة . ولا شك أن الصحابة كلهم لم يكونوا في مستوى واحد في هذا الموضوع . كما أن تحول الخلافة الى ملك عضوض وملك جبرية ، إنما كان لضياع هذه السنن ، أو لأنها تحولت الى معرفة عامية ، بدل أن تظل معرفة علمية في صدور الذين أوتوا العلم . وهذا ما قال عنه الرسول صلى الله عليه وسلم : «يحدث هذا أوانُ ذهاب العلم» . إن هذا الأصل الذي يحتوي عليه الحديث ، ضروري ونافع في عامة البحوث ، لذا أشعر بضرورة الإشارة إليه أثناء البحث في كل موضوع يحتاج إليه .

وقبل أن أختم البحث أنبه الى ما سبق ذكره من أن كلام ابن خلدون عن العوائد ، يوهم أنها غير خاضعة لسلطان الانسان . والحقيقة أن هذه العوائد ، تنشأ ثم تعمل عملها في حياة الانسان والمجتمعات وفق سنن وقواعد ، إذا عرفها الانسان استطاع أن يتحكم بالعادات ويصرفها وفقاً لما يريد .

وموضـوع العوائـد ليس مثـل الهـرم الـذي يصيب الانسان . فالهرم الذي ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم : أنه لا دواء له هو هرم الانسان ، لأن هرم المجتمعات له دواء يمكن علاجه بعد أن يقع ، كما أنه يمكن منعه قبل وقوعـه ، حين يسيطر الانسان على سنن رسوخ الفكرة وسنن التغيير .

وفـن تغيير ما بالنفس مهمـة الانسـان كما بينـا في هذا الكتاب .

وشيء آخر نريد التنبيه إليه ، وهـو أن العلـم له مقـام كريم في القرآن ، وحين جعلنا عنوان هذا الفصل «ما بالنفس يتفاوت في الرسوخ» كان مستندنا في ذلك قوله تعالى :

وَمَـا يَعْلَـمُ تَأْوِيلَـهُ إلاَّ الله والرَّاسِخُـونَ في العِلْمِ . . . » آل عمران ـ ٧ .

إن لرسوخ العلم ميزة خاصة من المعرفة ، أو كيفاً خاصاً للعلم ، به يعطى الانسان سلطاناً لا يتيسر لمن لـم يرسـخ في العلـم . وإذا فهمنا أن العلم قابل للـزيادة والرسـوخ ، زال تخوفنا من العلم ، وزالت الفكرة التـي طالما ملأت رؤوس المسلمـين : أن العلـم لا يؤدي الى فهـم الحـق ، ولا يحـل مشكلة المسلمين . وما يقال عن العلم والأخلاق والثقافة من أنها متغايرة ، سببه تفاوتٌ في رسوخ العلم وزيادته . وأصل التشويش الذي يحدث ، هو أن السلوك في مرحلة من مراحل العلـم ، لا يتكيفـ مع العلم الذي حصل كالذي «أضلـه الله على علم» الجاثية ـ ٢٣ ـ ولكن هذا ليس عيباً في العلـم ، وإنما

هو نقص في ترسيخ العلم ، ونقص في صاحبه ينبغي أن يكمله بالزيادة منه ، والترسخ فيه .

«وقل ربِّ زدني علماً» طه ـ ١١٤ ـ.

والمسلمون حين بحثوا الايمان والإسلام ، وهل الايمان قول وعمل أم لا ، إن هذا البحث أيضاً راجع الى نفس المشكلة التي هي علاقة السلوك بالمعرفة ، وهذه العلاقة درجات على حسب رسوخ العلم :

«قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم» الحجرات ـ ١٤ ـ .

وعدم التنبه الى تفاوت رسوخ العلم وزيادته ، هو الذي أدى بالبعض الى القول : إن هناك علماً ظاهراً وعلماً باطناً ، أو علماً عادياً وعلماً لَدُنِّيّاً ، وإنما هو علم ناقصٌ أو علم لم يرسخ . وقل : رب زدني علماً .

كيف تلقى السنن القبول عند المسلمين

إن كل سنة ومثال في التغيير ينبغي أن يكون مُسْتَنِداً الى القرآن الكريم ، لتكسب السنَّةُ فاعليتَها عند المسلمين .

إذ من الأمور التي تخص المسلمين في مشكلة تغيير ما بالنفس ، ولا سيما فيما يتعلق بالسنن وتطبيقاتها ، الحاجة الماسة التي ينبغي أن يراعيها من يمارس مشكلة التغيير أن لا ينسى في لحظة واحدة من اللحظات ، ضرورة ارتباط السنن والأمثلة والتطبيقات بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، من غير أن ينسى أيضاً سيرة السلف الصالح ما أمكن ذلك . كما عليه أن يكون حاذقاً في ربط الموضوع بهذه المصادر ربطاً وثيقاً ، وأن لا يمل من التذكير بكل مناسبة بمرجع سنن المجتمعات ، من آيات القرآن في الكتاب العزيز ، والسنة الصحيحة، وتطبيقات السلف الصالح . وفي هذه المصادر لمن أحسن التعرف عليها ، مادة غزيرة تدعمه بما لا يشعر معه المصلح أنه في حاجة الى مزيد . ولقد تنبه المستشرق صاحب كتاب حاضر العالم الاسلامي الى ذلك .

والأمر الذي يجعل هذا الارتباط ضرورياً ـ ولاسيما في المرحلة الأولى ـ هو الحالة النفسية التي يعيشها المسلمون الآن ، والتي تحول بينهم وبين تذوق معنى سنَّة الله في

خلقه .

بل إن الالتباس فيه حاصل ـ بوعي منه أو بغير وعي ـ إن لم يسبقه أو يلحقه ما يدعمه من الكتاب الكريم والسنة النبوية .

والذي يحول دون استفادة المسلمين من سنن التغيير وتطبيقاتها ، أن الذين يبحثون هذه الأمور ويمارسونها ـ إن كان هناك من يمارسها ـ لا يستطيعون ربطها بمبرراتها من كتاب الله وسنة رسوله . وذلك إما لجهلهم بالكتاب والسنة ، أو لاعتقادهم أنّ هذه السنن لا يعترف بها القرآن ولا السنة . بل ربما استخدموا هذه السنن لعزل المسلمين عن عقيدتهم بسبب جهلهم لحقائق القرآن أو بسبب تجاهلهم لها . لكن ما لنا ولهؤلاء الذين شأنهم هكذا ، فما بال أولئك الذين يتعلقون بالقرآن والسنة بكل ما أوتوا من حماس ايماني ، متوارث خلال العصور المديدة ! إن هؤلاء لهم مشكلة أخرى معاكسة لمشكلة أولئك ، فهم لا يعيرون اهتماماً للبحوث التي تعنى بتغيير المجتمعات ، لا لأنهم لا يشعرون أن محيطهم لا يحدث فيه تغيير ، بل لأنهم الى الآن لم يمكنهم أن يدركوا ارتباط هذا التغيير بالسنن النفسية والاجتماعية ، وأن إدراك هذه السنن يمكن من السيطرة على التغيير ، سواء في ايقاف التغيير أو إبطائه أو تغيير وجهة سيره في الجانب الذي يريدون . فمن هنا لا يخطر لهم أن يصرفوا جهداً في هذه الدراسات ، فضلاً عن أن يروا مواطنها وأصولها من الكتاب والسنة .

وأهم شيء يحث عليه القرآن ومن أجله أنزل الله الكتب وأرسل الرسل هو تغيير المجتمعات. فلهذا كان الإلحاح في القرآن لينظر الناس الى سنن الذين خلوا من قبل . والسنَّة (القانون) ، وهي التي على أساسها ترتفع وتنخفض المجتمعات ، وعلى أساسها يكافىء الله ويعاقب . وعلى البشر أن يتفهموا هذه السنن ، حتى ينالوا رحمة الله ويبتعدوا عن انتقامه . لهذا يقول الله تعالى : «**وإن يعودوا فقد مضت سنَّة الأولين**» **الأنفال ـ ٣٨** ـ أي وإن يعودوا لأعمالهم الفاسدة الناشئة عن تصوراتهم ، واعتقاداتهم الخاطئة ، فقد مضت سنَّةُ الله في نزول العقاب على أمثال هؤلاء .

ويقول الله تعالى أيضاً : «**ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين ، ومايأتيهم من رسول إلاّ كانوا به يستهزئون ، كذلك نسلكه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به وقد خلت سنَّة الأولين . ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سُكِّرت أبصارنا بل نحن قومٌ مسحورون**» . **الحجر ـ ١١ ـ ١٥** .

في هذه الآيات بينَّ الله تعالى كيف أنَّ ما بأنفس هؤلاء القوم من الأفكار ، راسخة ثابتة وجامدة ، وكيف أنَّ نظر هؤلاء محدود جداً ، وأن هذه المحدودية في النظر تحول بينهم وبين أن يكون محتملاً عندهم وجود طريقة للحياة أفضل مما هم عليه .

وهذا الجمود في النظر من غير برهان ولا هدى

ولا كتاب منير ، يكون قوياً وصلداً كلما جهل الانسان المواقف التي مر بها البشر السابقون أي سنَّة الأولين .

ولو أن هؤلاء كان عندهم علم بأحوال الماضين وما حدث لهم ، وما كان بأنفسهم من أفكار ، وكيف ظهرت آثارها على مرِّ الزمن ، لكانوا في جمود أقل ، وغرور غير بالغ حد اليقين ، ولكانت قدرتهم على تأمل ما جاءت به الرسل أوفر . ولكن الجهل الذي أطبق عليهم ، أعجزهم أن يروا إمكان وجود وضع أفضل مما هم عليه في الفكر والعمل ، وفي الغاية والوسيلة .

وتعتبر سنَّة الماضين حسب نهج القرآن دعماً للبشر ، ومساعداً لهم في الابتعاد عن الوقوع في الخطأ مرة أخرى . وكل التجارب البشرية العريقة في القدم ، والموزعة على أقطار البسيطة ، تراثٌ من العبر لكل الناس إذا أرادوا أن ينظروا إليها . وكل الذين لا يتذكرون ما وقع فيه الماضون من أخطاء، يكونون مُعَرَّضين لإعادة دفع ثمن جهلهم اجتماعياً، في حياتهم الدنيا ، كما هم معرضون لخسارة النفس في الآخرة حين يقولون :

«لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير» الملك - ١٠ - .

ومعنى سنَّة الأولين في الآية التي كنا ذكرناها . . .

«لا يؤمنون به وقد خلت سنَّة الاولين . ولو فتحنا . . .» : غير مختص بالأولين فقط ، بل هذه السنَّة تشمل

كل الذين كانوا قبلنا ، حتى الذين جاؤوا بعد نزول هذه الآيات ، كما تشملنا نحن أيضاً . وسنصير يوماً ما من سنّة الأولين لمن سيأتون بعدنا .

والبشر في سيرهم ، تتراكم الأمثلة والنماذج أمامهم ليعتبروا بها ، ويستفيدوا منها . فلهذا يدخل في سنّة الاعتبار ، الأحداث التي حدثت بعد نزول القرآن ، خلال هذه العصور في كل أقطار الأرض ، سواء في المجتمعات المؤمنة ، أم الكتابية أم الوثنية . . وإدراك مثل هذه السنن وعلاقة ما بالأنفس بما يحدث للأقوام ، هو الذي جعل ولز يقول :

«إن مصائب الحرب العالمية ، وما نزل بالناس من دمار وما حلّ عليهم من عذاب ، كانت الجزاء الوفاق لما يحمله الناس من أفكار خاطئة» (١) .

والقرآن الكريم في وصفه للمجتمع الاسلامي في المدينة ، وتذكيره بسنن الذين خلوا من قبل يقول :

«لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض ، والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ملعونين أينما ثقفوا ، أخذوا وقتلوا تقتيلا . سنّة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنّة الله تبديلا» الاحزاب ٦٠ - ٦٢ .

---

(١) معالم تاريخ الانسانية ص ١١٥٠ - ١١٦٠ .

إنَّ المجتمع الذي يستطيع أنْ يتغلب على المخادعين ، والذين لم تطمئن قلوبهم ، والذين يشيعون روح الهزيمة في المجتمع ؛ إنَّ هذا المجتمع يملك مقومات الاستمرار . . . «**لا يجاورونك فيها الا قليل**» : أي أنَّ هؤلاء مطرودون ، ولن يتمكنوا من إيقاف السير ، ولن يؤثر إرجافهم . . بل سينفون من المجتمع ويقذف بهم بعيداً .

إن للصراع في المجتمع سنناً ، ومن لا يتبع السنن يخر صريعا . . ولهذا يعقب الله على وصف حال مجتمع المدينة بقوله : «**سنَّة الله في الذين خلوا من قبل ، ولن تجد لسنَّة الله تبديلا**» . يذكر النموذج الحاضر في المدينة ، ويشير إلى الذين خلوا من قبل ، ثم يضع القاعدة بأنَّ هذا الحدث تابع لسنَّة الله ، ولن تجد لسنَّة الله تبديلا .

إن الله تعالى حين يعرض نموذج المجتمع المدني ، لا يعرضه كحدث خاص بمجتمع المدينة المنورة ، بل إن هذا الذي حدث في المدينة ، نموذج من النماذج التي تتبع لقاعدة : «**لن تجد لسنة الله تبديلا**» . فكل من يريد أن يبني مجتمعاً ، أيًا كان هذا المجتمع ، وأيّاً كان مثله الأعلى ، إنْ لم يسر على السنة ، وإن لم يعرف عوامل الهدم والبناء ، فلن يتمكن من إقامة مجتمع .

يقول كارليل في حديثه عن الرسول صلى الله عليه وسلم ـ وإن كان هدفه غير ما نريد هنا الآن ـ قال :

«لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متمدين من أبناء

هذا العصر أن يصغي إلى ما يظن من أن دين الاسلام كذب ، وأن محمداً خداع . . . . فوا أسفاه ما أسوأ مثل هذا الزعم .

وبعد ، فعلى من أراد أن يبلغ منزلة ما في علوم الكائنات ، أن لا يصدق شيئاً البتة من أقوال أولئك السفهاء . . . ولعل العالم لم يرقط رأياً أكفر من هذا وألأم ، وهل رأيتم قط معشر الاخوان أن رجلا كاذباً يستطيع أن يوجد دينا وينشره . . عجيب والله إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبني بيتا من الطوب !»[1] .

وفي العصر الحاضر نماذج من المجتمعات التي تقام حديثاً ، بصرف النظر عن قيمة مثلها الأعلى ، ولكن حتى هذا المجتمع ، لا يقوم إنْ لم يملك الفهم والعمل الكافي لحماية نفسه وتطهيرها من عناصر التخريب . . . «سنة الله في الذين خلو من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا» .

وحين يتعلم الانسان كيف يتعامل مع السنن ، يستطيع أن يستفيد من أخطاء ومن صواب الكافرين ، فضلا عن المؤمنين ، وذلك إذا تمكن أنْ يصل إلى درجة التعامل مع السنن مباشرة دون أن تتدخل عداوة أو صداقة من سخر هذه السنن .

إن هذا المستوى من الادراك ، لا يصل إليه إلاَّ من كانت منافذ الفهم وإدراك الصواب لديه مفتوحة ، حيث لم

---

(١) من كتاب الأبطال وعبادة البطولة ص ٤٩ ـ ٥٠ .

يتوصل التقليد إلى إغلاقها . وهذا ما يحثنا الله سبحانه وتعالى على فعله حين يصف لنا أولي الألباب : «**فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الالباب**» الزمر ـ١٨ ـ .

والقرآن الكريم يعرض لنا الأمثلة ممزوجة بالسنن ، بالواقع المعاش ، بالعبر الماضية فانظر مثلا إلى قوله تعالى :

(وأقسموا بالله جهد أيْمَانِهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفورا . استكباراً في الأرض ومكر السيءِ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله . فهل ينظرون إلا سنة الاولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا . أو لم يسيروا في الأرض ، فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) فاطر ٤٢ ـ ٤٤ .

في هذه الآيات يعرض الله لنا :

١ً ـ الدعوى : حالة قوم يؤكدون أنهم سيكونون أهدى لو جاءهم نذير ، ولما جاءهم النذير لم يكونوا عند قولهم .

٢ً ـ سبب إخلافهم الوعد : الاستكبار والمكر السيء .

٣ً ـ مجال الكشف : ويمكن رؤية هذا الارتباط بين هذه الحالة وسببها ، بالنظر إلى تاريخ الأولين خلال أحداث التاريخ لمن يسير في الأرض وينظر .

٤ً ـ ثبات السنة : ثم يبين أهمية السنن مجردة عن الأمثلة التاريخية حتى لا يتحول التاريخ إلى سنة ، لأن التاريخ يتبدل ، والسنة لا تتبدل . وفهم هذه النقطة حصانةٌ للسنة من

الضياع .

٥ً ـ مصدر التاريخ والسنة : هو السير في الأرض ، والنظر الى العواقب ، لأن ذلك يكسب الانسان معرفة بالتاريخ ، كما يكسبه قوانين الحياة وسننها . . وهذا الأمر لا يتحقق بمجرد الدرس ، وإنما بالسير والكشف أيضا .

وهنا ينبغي أن ننتبه إلى أن تحقيق بعض أوامر الله ، لا يتم إلا بالبحث خارج القرآن بأمر من القرآن الكريم .

ومثل هذه الحالة الاجتماعية التي يعرضها الله تعالى هنا ، مثل آخر في القرآن يبين فيه حالة معينة من الدعوى العريضة والعجز الفاضح :

«ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله ، قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ؟ قالوا : وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله ، وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ، فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم ، والله عليم بالظالمين . وقال لهم نبيهم : إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ، قالوا : أنّى يكون له الملك علينا ، ونحن أحق بالملك منه ، ولم يؤت سعة من المال . قال : إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم ، والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم . . .» البقرة ـ٢٤٦ ـ .

ولما قال لهم موسى **«استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين»** قالوا له **«أوذينا**

من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ، قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ، ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون» الاعراف ـ١٢٩ ـ .

قالوا له هذا القول ، أي كأنهم قالوا : ليس في مجيئك فائدة فالأذى لم يُزَلْ عنا بمجيئك ، فيقول لهم موسى : هناك أمر أهم من هلاك عدوكم واستخلافكم في الأرض ، وهذا الأمر الأهم هو كيف ستعملون حين يستخلفكم ؟ هذا الذي لاتعملون حسابه الآن . . . هذا الذي لم تُختَبَروا بهِ بعدُ . . ولقدْ قال الله تعالى :

«فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ، أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم ، وأعمى أبصارهم . أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها» محمد ـ٢٤ ـ .

إن الذين لا ينتبهون إلى تلك النقائص الاجتماعية لا يمكنهم أن يتفادوها قبل وقوعها ، إلا إذا كانوا يدركون أسبابها وسننها . وإذا فاجَأَتْهُم نتائج تلك النقائص يظلون حيارى لا يجدون مخرجاً ، وليس أبلغ من وصفهم بقوله تعالى : **« أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم ، وأعمى أبصارهم ، أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها» محمد ـ٢٤ ـ .**

إن الاستكبار الذي جعله الله سببا لأن يحيق بهم المكر السيء في الآيات التي سبق أن ذكرناها ، إنما هو ما ذكره الله هنا من العمى والصمم ، والاقفال على القلوب ، لأن الاستكبار

حالة نفسية ، أي فكرة خاطئة بالنفس ، تجعل الانسان مستكبرا ، يقول مالا يفعل ويدعي مالا يقدر عليه . كل ذلك ناشيء من التقدير الخاطيء للواقع والسنن ، ناشيء من نظر ذاتي محدود . . . . والانسان ذو الفهم الصحيح والادراك الجيد لوقائع التاريخ لن يكون مستكبرا ، إذ أن الاستكبار انما منبعه فراغ في الفهم ، وفراغ في إدراك الحقيقة .

إن المستكبر يتصف بالبعد عن النظر الموضوعي [1] ، وهذا البعد مبعثه الغرور ، الذي هو محتوى نفسي خاطيء .

ومشكلة الاستكبار تلقى اهتماما كبيرا في القرآن ، لأن الفارغ عن فهم الحقيقة يكون مستكبراً حين يملك ، ويذل إن زال عنه الملك . والمؤمن لا يكون مستكبرا إن ملك ، ولا ذليلا إن أصابته مصيبة . وهذا لا يتأتى إلا عن الفهم الموضوعي والعلم ، لا لمجرد وصفه بالايمان ، لأن الايمان ثمرة العلم والفهم . لهذا لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين .

إن الاستفادة من السنن وملاحظة الأمثلة والأحداث ، تقدم للناس بصرا ومعرفة نظرية وعملية ، حتى لا يقعوا فيما وقع فيه من قبلهم ، أو تنقذهم إذا وقعوا فيها ، أو على أقل تقدير ، تكسبهم صلابة موقف من يدرك السنة ، لأن موقف

---

(١) النظر الموضوعي : أن ترى الشيء أو الحدث كما هو عليه . والنظر الذاتي : أن ترى الحدث أو الشيء كما تريده أنت ، ولا يشترط ان يكون كما هو في الواقع ، وانما كما يتخيله الذهن ، كما كان الناس يتخيلون دوران الشمس حول الأرض .

من يرى السنن يختلف عن نظر وموقف من يجهل مصدر الأحداث . فان حيرة وخوف من يجهل ، غير بصيرة من يعلم ، وغير طمأنينته . فان من يجهل يطمئن حيث لا طمأنينة ، ويقلق حيث لا قلق ، ويعيش في حيرة من جراء المصائب التي تنزل به ولا يعرف مأتاها إلا ظناً وتَخَرُّصاً . . أما من يعلم وإن كان يعجز عن تغير كل شيء مرةً واحدة ، فانه يعرف أين يضعُ القلقَ ، وأينَ يضعُ الطمأنينةَ ، ولا يصابُ بالحَيرة ، وإنما يقوم بما يقوم به من عمل فيما يُجْدِي دون أن يَحْقِرَ ما يقوم به من عمل . ولا يطمعُ في إزالةِ الجبالِ في ساعة ، ولا يحقر من جهده القليل الذي يبذله مما يقرب إلى الهدف ، كمن يمشي على الخريطة والبوصلة ، لا كمن يضرب في تيه الأرض دون معرفة .

إن إدراك السنن والتعامل معها ، هو الذي يجعل الانسان يمشي سويا على الأرض ، ومن يجهلها فهو المكب : **«أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم ؟» . الملك ـ٢٢ ـ .**

إذا تذكرنا شأن شيع الأولين ، وأنه لو فُتحَ عليهم بابٌ **«مِنَ السماءِ فظلوا فيهِ يَعْرُجون لقالوا إنما سُكِّرَتْ أبصارُنا بل نحنُ قومٌ مسحورون»** . قد سبق أن ذكرنا محدودية هؤلاء في الفكر ، وجمودهم على ما هم عليه ، وأنه لا يخطر في بالهم احتمال طريق أفضل للوصول إلى غاية أسمى .

فاذا وجدنا اليوم حال المسلمين في الجمود ، والغرور ،

والمحدودية في النظر ، واعتقادهم أنه لا يمكن أن يكون هناك صواب إلا عندهم . وكيف لا ! وهم أهل الحقيقة ، وعلم اليقين من الكتاب والسنة المحكمة ! .

هنا تبرز المشكلة بكل ثقلها ، وبكل ما تحمل من خلط .

لندع ثقل المشكلة الآن ، ولننظر إلى أن هذه الحالة الاجتماعية ، تنشأ عن مفاهيم ونظرات معينة ، تصيب المجتمعات وتشمل البشر كبشر .

فاذا وجدنا تشابهاً بين المسلمين اليوم ، ووضع أمم سابقة لهم ، علينا أن نعلم أن سنة الأولين قد انطبقت علينا . كما أنه ينبغي أن لا يسيطر علينا حبنا لذواتنا وأنفسنا ، فيعمينا عن إدراك ، كيف يمكن أن ينطبق علينا ما انطبق عليهم .

فاذا رأينا أنفسنا في جحر الضب ، ونفعل مثل ما فعل الأولون ، حذو القذة بالقذة شبراً بشبر ، فعلينا أن لا نستغرب أن يصيبنا ما أصابهم ، لأن السنة التي لا تتبدل ، لا تميز بين السابقين واللاحقين ، وانما تعمهم جميعاً : «ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به» . النساء -١٢٣-

ان الاستكبار منع الاولين من ادراك الواقع . وهو يمنعنا الآن . نحن نجمع الصفات المتضادة ، نحن مستكبرون وأذلة أيضاً في آن واحد . وليس غريباً أن يجتمع الوصفان . ففي صحيح مسلم بين الرسول أن من الذين لا ينظر الله اليهم ، «العائل المستكبر» . فقد جمع بين العيلة والاستكبار .

وكذلك نحن عالة مستكبرون ، لا نظن أن أحداً يملك شيئاً من الحق له قيمة، ونحن عندنا الحق كله . ومع ذلك لا نستطيع أن نخفي ذلتنا وهواننا . وهذا الهوان الفاضح هو الزاد الوحيد الآن ، لنجعل المسلم يتنبه . فهذا الذل هو المسك الواضح للبدء في طريق الشفاء ، لأنه لا يمكن بَدْءالبحث الا من نقطة نسلم بها . ولا يمكن أن ينصت المسلم إلا عند هذه النقطة ، هذا ان لم تأخذه العزة القعساء وعنجهية الكبرياء فتسد عليه منافذ التأمل والانتباه .

إن ثقل المشكلة التي أشرنا اليها ، يتخفى في مخبأ مكين آخر وهو ، صعوبة أن يفهم ويتذوق ، كيف أن صاحب الكتاب والسنة ، وعلم الحقيقة واليقين ، يمكن أن يأتيه يوم ، لا يجديه الكتاب والسنة ولا ينفعه علم اليقين الذي كان عنده يوماً ما . إن سليمان لما قضى عليه الموت بقي هيكلاً قائماً وبقيت الجن في العذاب المهين إلا أنَّ دابة الارض أكلت مِنْسَأَتَهُ التي كان يتكىء عليها فخر . والعالم الاسلامي فقد روحه ، وظل متكئاً على عصاه ، ولكن العهد الاستعماري قام بمهمة الدابة ، فخر هذا العالم وهو لا يكاد يصدق ما حدث له وكيف حدث .

إن ثقلَ المشكلة ، في إقناعِ المسلم كيفَ فقدَ الكتاب والسنة ، وفقدَ علمَ الحقيقةِ وعلمَ اليقين ، كما فقد مواعيدَ الكتابِ والسنةِ بالنصرِ والتأييد . كلُّ ذلكَ أزالَ يقينه ، فتغيرتْ أمامَه الدنيا ، واختلطت عليهِ الأمور ، وتداخلت

الكبرياء بالهوان ، ومواعيد النصر بالهزائم المتوالية .

ونحنُ لا نزالُ في بحثِ أن السنة (القانون) ، لا تجدي عند المسلم إنْ لم تستند إلى الكتاب والحديث . وهنا نريد أن نستأذن كبرياء المسلم ، أن يتأمل معنا حديثاً للرسول صلى الله عليه وسلم .

قاعدة هامة :

إن هذا الحديث من المرتكزات القيمة لفهم هذه السنة العجيبة ، التي أعيى المسلمين السابقين واللاحقين ، فهم حقيقتها . هذه السنة وردت بوضوح صارخ في حديث صحيح للرسول صلى الله عليه وسلم . عن زياد بن لبيد أنه قال : «ذكر النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً فقال : وذاكَ عندَ ذهاب العلم . قلنا يا رسولَ اللهِ وكيفَ يذهبُ العلمُ ونحنُ نقرأ القرآن ونُقْرِئُه أبناءَنا ، وابناؤُنا يقرِئُونَهُ أبناءَهُم إلى يوم القيامةِ ؟ فقالَ : ثَكِلَتْكَ أمُّكَ يا ابنَ لَبِيْد ، انْ كنتُ لأَرَاكَ مِنْ أفْقَهِ رَجُلٍ بالمدينةِ . أوَ لَيْسَ هذهِ اليهودُ والنصارى يقرؤونَ التوراةَ والانجيلَ ولا يَنْتَفِعُونَ مِمَّا فِيْهِما بشيءٍ ؟» [1] .

هذا الحديث يبين أمورا تساعد على فهم أدق للسنن ، وهو من فهم الصادق الأمين (صلى الله عليه وسلم) ، الذي ما

(١) ذكره ابن كثير في تفسير الآية (٦٦) المائدة . وصححه

ترك شيئاً ينفع أُمَّتَهُ الا وحثهم عليه . إنه كان صلى الله عليه وسلـم يرى المستقبل من خلال السنن . السنـة التـي تعـم الجميع ، والتي انطبقت على أهل الكتاب السابقين ، ويمكن أن تنطبق على أهل القرآن . فان هذا الحـديث لا يحتمـل أي تأويل أو غموض في الفهم . فانه يذكر سنة ، وحادثة معاصرة لها تاريخ سابق ، ومثـالاً سيأتـي ، فانـه جمـع بذلك الماضي والحاضر والمستقبل . لأن الموضوع يخضع لسنة ، إذ كل من اكتسب الحالة النفسية التي كانت عليها اليهود والنصارى يحل به ما حل بهم . وهذه الحالة النفسية المشابهة ، يطلق اللّه عليها تشابـه القلـوب ، ويقـول الله في ذلك : « وقـال الـذين لا يعلمون ، لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية ، كذلك قال الـذين من قبلهم مثل قولهم ، تشابهت قلوبهم ، قد بينـا الآيات لقـوم يوقنون» البقرة ـ١١٨ ـ .

ان فكرة الاجتـراء على المعـاصي ، على أسـاس أنهـم يعذبون قليلاً ثم يذهبون الى الجنة ، فكرة منتقدة على اليهود والنصارى ، ولكن ذلك لم يمنع المسلمين من الاحتجاج بنفس الحجج . قال الله تعالى : « وقالوا لن تمسنـا النـار الاّ أيامـاً معدودة ، قل أتخذتم عنـد الله عهـدا فلن يخلف الله عهـده أم تقولون على الله ما لا تعلمون» البقرة ـ٨٠ ـ .

وقال : «ألم تر الى الذين أوتوا نصيبـاً من الكتـاب . يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم ، ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ، ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار الا اياماً معدودات

وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون» آل عمران ـ ٢٤ ـ .

ومثل هذه القياسات والخصوصيات التي تدعيها الاقوام لنفسها ، ينفيها الله تعالى في قوله : « ليس بأمانيِّكم ولا أماني أهل الكتاب ، من يعمل سوءاً يجز به ، ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيرا» النساء ـ ١٢٣ .

في هذا الحديث الذي نحن بصدده ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «يَحْدُثُ ذَاكَ عِنْدَ ذَهَابِ العِلْم .» ويَصعب على الصحابي ان يفهم كيف يذهب العلم ومعهم مصدره . فيضرب الرسول صلى الله عليه وسلم المثل على إمكان ذلك ، من واقع الحياة المعاصرة لهم ، من مجتمع سابق لا يزال معاصراً لهم ، معهم الكتاب ، ولا ينتفعون مما فيه بشيء .

وهدفي من سياق الحديث هنا ، ان أثبت أن مصير المسلمين الى ما صار اليه السابقون أمر ممكن ، وهذا ما تم . فالمسلمون اليوم يقرؤون القرآن والحديث ولا ينتفعون مما فيهما بشيء ، وما ذلك إلا لذهاب العلم ، الذي ذهب معه الانتفاع منهما كما يبين الحديث. وهنا لاأُحمِّل الحديث شيئا لا يحتمله ، وإنما سياقه ونصه هو الذي يثبت هذا بالذات . إن الرسول صلى الله عليه وسلم يقرر أنه إذا ذهب العلم ، يذهب معه الانتفاع مما في القرآن والحديث ايضاً .

وقدْ نختلفُ على حقيقةِ هذا العلم ، وهَلْ هو عندنا ، أم ليس عندنا ؟

ولكن المهمّ أن الرسول صلى الله عليه وسلم حدده بأنه علم . ومهما اختلفنا فان الواقع أقسى من أي خلاف .

إن الواقع بكل ثقله وكل دلالاتـه الصارخـة والخفية ، يقول : إن المسلمين ، لم يعودوا يملكون العلم الـذي ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم ، هذا العلم الذي مجده الله في القرآن ، وعلى أساسه أثبت تفاوت الناس ، ورفـع بعضهـم فوق بعض درجات . وبأسلـوب انـكاري نفـى ان يتسـاوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون .

إن العلم لم يعد له مفهـوم واضـح عنـد المسلمـين . ولا يعرفون له تعريفاً يستطيعون أن يميزوا به ما هو علم مما هو ليس بعلم ، وهذا يفقد العلم قيمته ، فيختلط بالظن ، وينظر إليه كما ينظر إلى الأوهـام والظنـون ، فهـذا هو معنى ذهاب العلم . وكثيراً ما يمدح المسلمون دينهـم بانـه دين العلـم ، ويريدون بذلك ان يزينـوه كما يتـزين الفارغـون بالازياء الجديدة . ولكن حين يُبحث الموضوع على اساس العلـم ، ترى أعينهم تدور كالمغشي عليه ، ويصير العلـم عندهـم هو والظن سواء ، ويفضلون ان يتمسكوا بنظرات ذاتية كوَّنوهـا عن الاسلام ، رسخت على مر العصور .

وليس موضوعنـا هنـا هو بحـث العلـم ، هذا العلـم المظلوم ، الذي لم يعد له مقام في العالـم الاسلامـي . فهـو روح فقدناه وحقيقة غبنا عنها . وما لم يرجع هذا العلم الى المسلمين ، بكل ما منحه الله من قوة وسلطـان ، فلن يقـدر

المسلمون ان يستفيدوا من الكتاب والسنة ، وسيظلون يتدحرجون تحت أقدام اللاعبين ، مهما ظنوا أنهم أهل القرآن وعلم الحقيقة واليقين .

وهنا يختلط على المسلم تقديسه للكتاب والسنة ، واعتقاده أنهما يغنيان عن كل شيء بأمر آخر وهو كيف لم يرفعا عن المسلم الهوان الذي وقع فيه .

فهنا نخطيء ويصل تقديسنا للكتاب والسنة الى الغلو ، حين ننسب اليهما شيئاً ليس من مهمتهما ، اذ ليس من مهمة الكتاب والسنة ، ان يرفعا الهوان عن قوم لا يستخدمون أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم . فهذه الملاحظة امر جوهري ، علينا أن نتأمله جيداً ، اذ ليس من شأن الكتاب أن يدخل في قلوب غلف مغلقة . لأنه وإن كان من شأن الكتاب والسنة الهداية ، الا أن بعض البشر ، يزيدهم هذا الكتاب ضلالاً ولا يزيدهم هدىً . قال تعالى :

«يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً» البقرة ـ ٢٦ ـ ويقول الله تعالى : «إنما تنذر الذين يخشون ربهم» فاطر ـ ١٨ ـ «انما تنذر من اتبع الذكر» يس ـ ١١ ـ . «لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين» يس ـ ٧٠ ـ .

هذه حقيقة علينا أن نفهمها جيداً ، اذ ليس مما ينقص من قدر الكتاب والسنة ، أنهما لا يرفعان شأن قوم ، لم يرفعوا بما بعث الله به رسوله رأساً .

وعلينا أن نكرر هذا ، حتى لا يُفرض على الكتاب

والسنة ما ليس من شأنهما . ثم على أساس هذه الفرضية ، يظن أن الكتاب والسنة لم يقوما بمهمتهما . ونقع في هذا الخلط بدون شعور منا . فهذا الغموض ، وهذه الفرضيات التي فرضناها ، وابتدعناها تعظيماً للكتاب والسنة ، توهمنا أن الكتاب والسنة ، لم يؤديا المهمة التي ظننا انهما ينبغي أن يقوما بها . وهذه متاهة ومكان للالتباس ، وعلينا أن نعرف أن الكتاب يظل كاملاً ، ويظل متصفاً بكل صفات القداسة ، ولا يشترط أن يرفع الكتاب رأس من لم يرفع به رأساً .

وبعد ان نفهم هذا . نستطيع أن نرجع الى هذا المسلم الذي يكمن الداء فيه ، إذ فقد الاستفادة من الكتاب والسنة لفقدانه العلم ، لا لأن الكتاب والسنة لم يعد فيهما ما ينفع . فإن اتضح هذا فلا يجوز أن نحمِّل الكتاب والسنة ما ليس من شأنهما .

ولكن يبقى بعد ذلك أنَّ هذا المسلم تظل أمامه عقبة أخرى ، مثل تلك العقبة التي مررنا بها وهي : هل يمكن أن يعترف المسلم أنه بلغ درجة لم يعد ينتفع مما في الكتاب والسنة شيئاً ؟ إن هذا الاعتراف شيء ليس سهل المنال . إن إدراك هذا ورسوخه بوضوح في اعماقه ، أمر له أهمية بالغة ، لأن المسلم إن لم يفهم هذا ، لا يمكن أن يتوب مما فيه . وكيف يتوب وهو لم يشعر أنه أذنب !

إن الفهم شرط التوبة ، شرط تغيير ما بالنفس . والتائب هو الذي غير ما بنفسه .

إن الكتاب والحديث ، وكل السنن الكونية ، تظل معطلة بالنسبة للانسان ، إن لم ينتبه اليها . وليس معنى هذا ، أن هذه السنن يبطل مفعولها ، ولكن معناه ، أن المسلم لا يستطيع أن ينتفع منها . فالمشكلة ، ليست في ان الكتاب لم يقم بمهمة الايقاظ ، ولكن المسلم لم يقم بواجب النظر .

إن عقل المسلم لم يتعلق بالكتاب والسنة بمعنييها ، بمعنى سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبمعنى سنن الله في الكون . وبهذا نكون حددنا ، أنَّ مكان المشكلة ، ليس في الكتاب والسنة بمعنييها ، وانما في العقل ، الذي فقد وظيفته في العالم الاسلامي . ويكفي على هذا دليلا ، إغلاق باب الاجتهاد في العالم الاسلامي خلال القرون الطويلة . إن هذا الاغلاق لم يأت من الكتاب والسنة، ولا أَمَرا به، بل من اهم ما يعنى به الكتاب والسنة : الاجتهاد ، ثم الاجتهاد ، ثم الاجتهاد . . . ولكن العالم الاسلامي هو الذي أغلق الباب ، باب الاجتهاد ، باب العقل ، الذي يمكن أن يدخل إليه الكتاب والسنة ، ليقوما بمهمة توجيه هذا الانسان . وكان الهدف من اغلاق باب العقل عند المسلمين ، حماية الكتاب والسنة من التلاعب والتفلت . ولكن هذا الهدف لم يخدم الكتاب والسنة ، لأن العقل المقفل لا يستطيع أن يحمي الكتاب والسنة .

واليوم إن الذين يرفعون لواء الكتاب والسنة في العالم الاسلامي ، وكل الربانيين الذين ظهروا في الأمة ، ليسوا

أولئـك الذين أغلقوا عقولهم ، وأغلقوا باب عمل العقـل عن الجد والاجتهاد . وإنما أولئك ، الذين سعـوا ، ولا يزالـون يسعون جهدهـم لإعمال العقـل ، وإعـادة العملية الـوظيفية للعقل الاسلامي ، الذي أصيب بالكساح منذ قرون طويلة ، حتى صار مقعدا .

والمتاهة التي يضيع فيها المسلم ، هو ظنه ، أنَّ من بيده الكتاب والسنة لا يضل عن الكتاب والسنة ، وجهله أن من فقد العلم ، الـذي هو نتيجـة فتـح السمـع والبصر ، يفقـد الانتفاع بالكتاب والسنة .

إن العالم الاسلامي ، إنْ لم يستعمـل سمعـه وبصره وفؤاده فيما خُلق له ، فان كنوز الكتاب والسنة ، ستظل مقفلة أمامـه ، مهما أكثر من طبعاتـه ، وأثقـل من حملهـا رفـوف المكاتب . وفي مثل هذا ضرب الله مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها .

إنَّ القلوب التي عليها الطبـع ، والعيون التـي عليهـا الغشاوة ، والآذان الموقورة ، لا تتفاعل مع الحقيقة .

وهناك مشكلة أخرى أيضاً ، ليست أقل استعصاء على الحل ، أمام فكر المسلم ، فهي عقبة صعبة الاقتحام ، يمثلها هذا التساؤل : إن كان هذا الأمر حقـا ، فكيف خفـي على الملايين من المسلمين ، خلال مئات السنين ؟

إن هذا التسـاؤل وارد ، سواء في أول الطـريق أو في آخره . وما لم تَزُلْ هذه العقبـة ، فلا يمكن التقـدم في حل

المشكلة . فهي نوع من الآصار ، والأغلال ، التي تحدث الرعود والبروق في عقل المسلم ، فلا يعود قادراً على تأمل الموضوع . لأن في قبوله لذلك ، إدانة الملايين . وفي رفضه ، زيادة التعقيد والحيرة . وأرى ومع ذلك أقدِّر هذا التساؤل ، وأُسَرُّ أيضا ، إذا اعترفت به ، وأرى في ذلك إخلاصَ السائل . كما أرى أن حل هذا التساؤل ، وإزالة المشكلة ، يكون سبباً لراحة المسلم ، وتطمين ضميره . وبدون هذا الحل ، يشعر بامتعاض ، وقد يتمنى لا شعورياً ، ألا يواجه المشكلة . ولكن لا بد من إزالة التيارات المزعجة . وعقل المسلم ، يُقْبِل على هذا بكل حذر ، مثل حَسْوِ الطير للماء ، حين خوفه .

فهذا الخوف ، من إدانة المئات من الملايين من المسلمين ، بأنهم لم ينتبهوا الى هذا خلال مئات السنين . لا نقول إن هذا الخوف لا مبرر له مطلقاً ، بل فيه صواب ، كما فيه أخطاء ليست هينة ، وأحيانا تحجُبُ شعرةٌ ، نورَ العين فتمنعها من الإبصار . وأحياناً تتعقد المشكلة ، وحلها يسير كما قال البدوي :

رُبَّمَا تَكْرَهُ النفوسُ مِنَ الأَمْرِ لَهُ فُرْجَةٌ كَحَلِّ العِقالِ .

فيا أخي وعزيزي ، أيها المسلم القلق في كل مكان ، يا من يقلب وجهه في السماء ، باحثاً عن القبلة التي يرضاها . إني أشاركك في قلقك وتطلعاتك . لقد عانيت ما تعاني . فتعال نبحث ، دون أن أتضايق منك أو تتضايق مني . إني

لا أتضايق منك ، بل أستبشر بهذه الاشواق التي تحملها إلى المعرفة ، وإلى الكشف ، وإلى شوقك إلى البلاغ المبين .

وإني أرى نفسي فيك ، فأنا مشيت معك هذا الدرب ، ومررت على هذه الثغرات ، ويذكرني هذا بقول إقبال رحمه الله :

لَيسَ يَخْفَى عَلَى القَلَنْدَر (١) فِكْرٌ
سَاوَرَ النَّشْءَ ظَاهِراً أوْ خَفِيّاً
أنَا عِنْدِيْ بِكُلِّ حَالِكَ خُبْرٌ
فبِهَذَا الطَّرِيْقِ سِرْتُ مَلِيّاً

وهذا القلق الذي يخطر ببال المسلم ، من استغراب غفلة الملايين خلال مئات السنين ، حله في الكتاب والسنة ، حين نتوجه إليها بعيون وقلوب مبصرة ، وعندها لن نضل أبداً .

إن من أوليات ما يعلمنا الله تعالى في كتابه الكريم : أن الباطلَ لا يكسبُ قوةَ الحقِ ، وإنْ كثرَ أتباعه وطالَ عمرُهُ .
«قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث» المائدة - ١٠٠ -

. . . والقرآن الكريم يَدينُ الذين يَلْزَمُونَ ما كان عليه آباؤُهم ، فيقول في ذلك :

«وإذا قيل لهم اتَّبِعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا

---

(١) رمز يستخدمه محمد اقبال : للمسلم الذي ادرك الحقائق .

عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون» البقرة - ١٧٠ - .

والآيات في هذا كثيرة . والقرآن مليء بهذا الموضوع : «إنهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون» الصافات - ٧٠ -

ولا سيما في المحاجة بين الانبياء وأقوامهم : «قال : فما بالُ القُرونِ الأولى» طه - ٥١ - إنه نفس السؤال الذي يراودنا الآن . لكن علينا أن نواجه بوعي ، هذا الذي يعترضنا . ونحن هنا نستعين بجواب موسى عليه السلام ، الذي اصطنعه الله لنفسه . قال موسى في الجواب :

«قال : علمها عند ربي ، في كتاب . لا يَضِلُّ رَبّي وَلا يَنْسَى» طه - ٥٢ -

والذي أريد أن نستفيده من موسى عليه السلام هنا ، أن فرعون لما قال : فما بال القرون الاولى ؟ كان يريد أن يقول : يا موسى هل أنت وحدك الذي فهمت هذا الذي جئتنا به ؟ فما بال القرون الاولى ؟ يعني : ما بال الأجيال المتتابعة الماضية ، الكثيرة العدد خلال قرون بعيدة . ألم يفهموا هذا الفهم ؟ .

واليوم قد يخطر في بالنا نحن أيضاً نفس هذا التساؤل . كما يخطر لنا تساؤل آخر ، وهو أن يقال ، إنك تشبه المسلمين بالكافرين ، بفرعون والأمم الضالة الوثنية . ونحن إن أردنا الشفاء ، مما نحن فيه من المصيبة ، علينا أن نتقبل بعض

الصعوبات التي لم نتعودها . وعلينا أن نغير شيئاً من نظراتنا الى المسلمين وقد قدمت أن آية التغيير ، التي هي موضوع بحثنا في هذا الكتاب سنة عامة وليست سنة خاصة بقوم معينين . فكل قوم يحملون نفس الأفكار ، تحل بهم نفس النتائج .

إن السنن النفسية ، مثل السنن العضوية ، تنطبق على المسلم والكافر . فعلينا أن نمتلك القدرة على أن نرى نفس الفكرة وأثرها ، بصرف النظر عمن يحملها :

«لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أمانِيِّ أَهْلِ الكِتاب مَنْ يَعْمَلْ سُوْءاً يُجْزَ بِهِ» النساء ـ ١٢٣ ـ

ثم كذلك ، لا يشترط أن يكون أولئك الآباء من أهل النار ، وأن يصيروا بذلك كفاراً . والخوف من أن نُحَمِّلَ الآباءَ ، إثمَ الخطأ ، يشكل حاجزاً نفسياً يمنع من تأمل الموضوع بنزاهة . فقد يكون لهؤلاء الآباء ، على أخطائهم أعذارٌ عند الله . فقد أخطأ من أهل أحد ، الرماة الذين تركوا أماكنهم ، ولكن انتقل من قُتِلَ منهم ، الى حواصلِ طيرٍ خضرٍ في الجنة ، في مساء ذلك اليوم .

ولابنِ تيميّة ، كلامٌ حسنٌ على هذا الحاجز النفسي عند المسلمين، قالَ: «ويترتب على هذا الأصل، أن الرجل العظيم في العلم والدين ، من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى يوم الدين ، قد يحصل منه نوع من الاجتهاد ، مقروناً بالظن ، ونوعٍ من الهوى الخفيّ ، فيحصل بسبب ذلك

ما لا ينبغي اتباعه فيه ، وإن كان من أولياء الله المتقين . ويصير فتنة لطائفتين ، طائفة تعظمه ، فتريد تصويب ذلك الفعل ، واتباعه عليه . وطائفة تذمه ، فتجعل ذلك قادحاً في ولايته وتقواه ، بل في بره ، وكونه من أهل الجنة ، بل في إيمانه حتى تخرجه من الايمان . وكل هذين الطرفين فاسدٌ . ومن سلك طريق الاعتدال عظم من يستحق التعظيم ، وأحبه ووالاه ، وأعطى الحق حقه . فيعظمُ الحقَّ ، ويرحمُ الخَلْقَ ، ويعلم أن الرجل الواحد ، تكون له حسنات وسيئاتٌ فَيُحْمدُ ويُذمُّ ، ويثابُ ويعاقب ، ويحب من وجهٍ ، ويُبْغَضُ مِنْ وجهٍ . هذا هو مذهبُ أهلِ السنَّةِ والجماعةِ خِلافاً لأهل البدع »[1] . لهذا كان جوابُ موسى ، جواباً علمياً دقيقاً ، مراعياً الاعتبارات النفسية وحواجزها . كان جوابا رائعا ، كان جوابه «علمُها عِنْدَ ربي» ولم يقل : أولئك الأقوام في كذا ، أو سيصيرون إلى كذا ، لأن المشكلة هنا ، ليست مشكلةَ أقوام مضتْ يُرادُ إدَانتَهُم ، ولكن المشكلة ، مشكلة تخليص أقوام لا يزالون يعيشون الآن .

وعلى المسلم أن يكون حاذقاً في هذا ، فليدع مصير أولئك ، فقد يكونون في مغفرةٍ من الله وضوانهِ . ولكن ذلك ، لا يُبَرِّرُ لنا أن نظل في الخطأ ، ولا يبرر لنا أن نَحْمِلَ أَوْزَارَهم . وعلينا أن نتذكر قوله تعالى الذي تكرر في سورة

---

(١) ص ٧٢ مختارات السعدي .

البقـرة في مثـل هذا الموضـوع ، مرة في التعقيب على الصـالحين : «وإذ حضر يعقـوبَ الموتُ ، إذ قال لبنيه : ما تعبدون من بعدي ؟ قالوا : نعبد إلهَكَ وإله آبائِـك ابـراهيمَ وإسماعيلَ وإسحقَ ، إلهاً واحداً ، ونحن له مسلمون ، تلك أمة قد خَلَتْ ، لها ما كسبتْ ولكم ما كسبتم ، ولا تُسألُونَ عما كانوا يعملـون» البقـرة ـ ١٣٤ ـ . ومـرة أخـرى في التعقيب على المنحرفين فيقول : «أم تقولون إن ابراهيمَ واسماعيلَ وإسحقَ ويعقوبَ والأسباطَ ، كانوا هوداً ، أو نصـارى ، قل : أأنتـم أعلمُ أم الله ؟ ومن أظلم ممن كَتَمَ شهادة عنْدَهُ من الله ، وما الله بغافل عما تعملون . تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تُسْألُونَ عما كانوا يعملون» البقرة ـ ١٤١ ـ .

وهناك سنة قرآنية أخرى ، علينا أن نستفيد منها أيضا وهي ، أن القرآن ، كلما حكم على أقوام ماضية بالضلال ، لا يعمهم جميعاً ، بل يستثني القليل أو يحكم على أكثرهم : «وما فعلوه إلا قليل منهم» النساء ـ ٦٦ ـ، «وما آمن معه إلا قليل» هود ـ ٤٠، «وقليل من عبادي الشـكور» سبأ ـ ١٣ ـ «إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليلٌ ما هم» ص ـ ٢٤ ـ «ثم توليتم الا قليلاً منكم وأنتـم مُعرِضُـون» البقـرة ـ ٨٣ ، «ولا تزال تطلع على خائنة منهم ، الا قليلا منهـم» المائـدة ـ ١٣ ـ «فلولا كان من القرون من قبلكم أُولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض الا قليلا ممـن انجينـا منهـم» هود ـ ١١٦ ـ وهـذا بالنسبة لمجموع القوم ، إذ يكون الكثيرون منهم على الخطأ ،

وأفراد قلائل يُسْتَثْنَوْنَ من المعصية ، التي وقع فيها الأقوام . ولا يحكم القرآن على الجميع ، الا أن يكون وجه آخر ، مثل جنود إبليس أجمعين . وهناك غير الحكم على مجموع الأفراد ، حكم على مجموع أعمال الفرد أو المجتمع ، فكذلك يحكم الله في هذا أيضا مثل قوله تعالى :

«فقليلا ما يؤمنون» البقرة ـ ٨٨ ، «قليلا ما تذكرون» الاعراف ـ ٣ . «بل كانوا لا يفقهون الا قليلا» الفتح ـ ١٥ .

والآن اذا رجعنا الى موضوعنا ، في الحاجز النفسي ؛ ما بالُ القرون الأولى ؟ ما بال الملايين خلال المئات من السنين هل كلهم كذلك ؟

لا لم تكن الملايين خلال مئات السنين كذلك . ولكن قليل في التاريخ ، خلال مئات السنين ، الذين كانوا لا ينطبق عليهم قوله تعالى :

«وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أَوَلَوْ كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون» البقرة ـ ١٧٠ ـ.

ولو نظرنا إلى التاريخ ، لوجدنا أمثال ابن تيمية[1]،

---

(١) ومايزال الأفغاني ، ومحمد عبده ، ورشيد رضا ،موضع ريبة وتشكيك ، حتى عند بعض من يعد من المتبصرين في هذا العصر . ووجود هذه القلة ، لا يستتبع تغيير المجتمع ، ذلك أنه ، لم يعم هذا النموذج بنسبة معينة ، يصل بها الى اسقاط فرض الكفاية كحد ادنى .

يطاردهم أتباع الآباء (الآبائيون) ، خلال التاريخ ، وتُطَارَدُ مؤلفاتهم أيضاً ، سواء ممن كانوا من أتباع الآباء الأولين ، أو من أهل السياسة والسلطان . فلقد مات ابن تيمية في سجن القلعة في دمشق ممنوعاً عنه أدوات الكتابة .

كما لا يشترط في هؤلاء القليلين ، أن يكونوا معصومين لا يقعون في خطأ ، ولا سوء فهم في أمر من الأمور . ولكن حسبهم ، أنهم كانوا منارات في دَرْبِ التَبَصر . إذا نظر أحد إلى التاريخ ، برزوا فيه كالنجوم يهتدى بهم . وإن تجاوز العلم ما كانوا وصلوا إليه . الا أنهم يزدادون ضياء على مر العصور . فسواء شعر من ينتقدهم ، أو يتهمهم حتى في نياتهم ، أو لم يشعر ؛ إنه يقف على ما رفعوه من معالم ، حين يحاول أن يفهم شيئاً ما ، على أساس العقل .

وكل من أراد أن يقرأ آيات الله ، في الآفاق والأنفس ، في هذه الأيام ، يجد هؤلاءِ رُوَّادَ الطريق ، وعكازات يتكىء عليهم ، لِيَثْبُتَ أمام عُصْبَةِ الآبائيين . وإذا شعر أنه في غنى عنهم ، فان هذا الجو الذي يستطيع أن يتنفس فيه هو ، إنما من صنعهم ، وصنع كفاحهم . إن من يعرف معالم التاريخ ، يمكن أن يعرف ذلك . ولكن مصيبة المصائب ، أن لا تعرف كيف حدث ما حدث ، ولا على أي أكمة تقف ، سواء كان من العَمارِ ، أو الخراب ، حين نقف لنحكم على الأحداث .

كان البحث ، في موضوع : ضرورة ربط آيات الآفاق

والأنفس ، وسنن التعامل معها ، بآيات القرآن ، ربطاً محكماً ، بحيث يشعر المسلم ، بالارتباط القوي بين آيات الكتاب وآيات الآفاق والأنفس ، وأن ذلك ليس مجرَّدَ إقْحَامٍ . وهذا يحتاج إلى حذق ، والى معرفة دقيقة من التعامل مع الأنفس . ونحن إذا أردنا أن نعيد للعقل وظيفته ، فلا يعني ذلك ، معارضة أمر القرآن . بل من أعظم مهمة الكتاب الكريم ، أن يعيد للانسان كانسان ، وظيفته . ثم بعد ذلك يسير به في ظلال : «أفلا تعقلون» حتى يوصله إلى النعيم المقيم ، ولا يتركه في أي جزء من الطريق من حين أن يقول : «يا أيها الناس» الى قوله : «وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير» وإلى أن يقول : «ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين» .

ولعلي أكون بهذا ، قد بعثت بصيصاً من الأمل ، فيما حاولت أن أصل إليه ، من أن : كل سنة ، وكل مثال في التغيير ، ينبغي أن يكون مستنداً إلى القرآن الكريم ، لتكسب السنّة فاعليتها الاجتماعية عند المسلمين . ومعنى الفاعلية الاجتماعية ، ان يتعامل العقل مع السنن ، في سعيه إلى ابتغاء مرضاة الله . والمجتمع الذي شأنه هذا ، سيكون من أبرع المجتمعات البشرية ، في استخراج أحسن النتائج ، من الوسائل المتاحة له ، باستخدام السنن استخداماً صحيحاً . فمثل هذا المجتمع ، هو الذي يسبغ الله عليه من نعمه ، ظاهرة وباطنة ، في الدنيا والآخرة : «لعلكم تتفكرون في

الـدنيا والآخـرة» البقـرة ـ ٢٢٠ ـ. وحتـى هذا الوصـل بالكتاب ، قد لا يكفي لإقناع المسلم ، بأنه لم يخرج عن أمر الكتاب ، لأنه لا يكفـي عنـد المسلـم ، ان يكون الموضـوع موجودا ، في الكتاب والسنة ، حتى يقبل الأمر . لأن فهـم الكتاب والسنَّة مقيد بفهم الآباء ، وفكرة : «ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين»ـ المؤمنون ـ ٢٤ـ. لها سلطان أيما سلطان، ومن هنا يتبين ، أن مشكلة المسلمين معقـدة ، ليسـت بسيطـة . ولكن مع ذلك ، فإن إدراكها ادراكاً صحيحاً ، لا يجعل الأمر مستعصياً على الحل . لأن المشكلة ، مشكلة إكساب الانسان المسلـم ، قدرة التعامـل مع الحقيقـة ، بصرف النظـر عن ملابساتها ، أو إكساب المسلم قدرة التعامل مع السنَّة : «سنة الله في الذين خلوا من قبل» الأحزاب ـ ٣٨ ـ .

وهنا ينبغي أن نشير إلى أمـر آخـر ، وهـو القـدرة على التمييز ، بين ما نقبله على أساس الثقة ، وما نقبله على أساس التعامل مع السنَّة . فان من أدرك كيفية التعامل مع السنَّة ، لا يعود يبالي بالثقة من جهة الناقـل ـ فيما يمـكن اختبـاره على أساس السنَّة ـ سواء كان الناقل موثوقاً به ، أو ليس كذلك ، لأن الموضوع في هذه الحالة ، يحمل دليله معه . فكل من عرف التعامل مع السنن ، لا يمـكن أن يخدعـه صديق ، أو يغـره عدو ، سواء كان قاصداً أو غير قاصـد . أمـا من لا يعـرف التعامل مع السنَّة ، وإنما يقبـل الموضـوع على أسـاس الثقـة فقط ، فهذا معرض للوقوع في الخطأ ، ولا سيما إذا كان ، في

قبول تفسير ، ما ينقل عن المعصوم ، صلى الله عليه وسلم .
وهذا التعرض للخطأ يكون على وجهين :
حين نقبل خطأ من نثق به .
وحين نرفض صواب من لا نثق به .
وأسلوب أخذ المسلمين ، العلوم الاجتماعية والنفسية ، مبني على أساس الثقة ، فلهذا لا قدرة لنا على التعامل مباشرة مع السنن ، وإعطائها ما تستحق من العناية .
وليس معنى ذلك عدم التثبت إن جاءنا فاسق بنبأ . فان أمور الدنيا ، التي يمكن أن تقع تحت اختبار العلم ، الذي يمكن أن نكتشفه في سنن التاريخ ، ووقائع الأحداث ، نقبل فيه على اساس الاختبار والعلم ، فنأخذ أحسنها نتائج ، وأحمدها عواقب . وهذا الذي أمرنا الله تعالى به في قوله : «فبشر عباد ، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله واولئك هم اولو الألباب» . الزمر - ١٨ - .
فان جاءنا أحد بنبأ في علم الفلك ، لا نقول عنه منجم كذاب ، ما دام ما يأتي به خاضعاً للاختبار . ويقول في هذا ابن تيمية : « . . . والعلم بوقت الكسوف والخسوف وان كان ممكناً ، لكن المخبر المعين قد يكون عالماً بذلك ، وقد لا يكون . . . . ولكن اذا تواطأ خبر أهل الحساب على ذلك ، فلا يكادون يخطئون . . . . وإذا جوز الانسان صدق المخبر بذلك أو غلب على ظنه فنوى أن يصلي الكسوف والخسوف عند

ذلك واستعد ذلك الوقت لرؤ ية ذلك كان هذا . . . من باب المسارعة الى طاعة الله وعبادته .»[1] .

وفي سنن التاريخ والنفس والاجتماع ، حين يأتي أحد بنبأ ، فليس النظر فيه الى فسق من أتى بالنبأ أو تقواه ، ولكن إلى مقدار صمود ما أتى به من برهان على دعواه ، أمام الاختبار والتحقيق . وهذا كان واضحاً لابن خلدون في بحثه لسنن العمران وطبائعه ، قال في أسباب ما يجعل الكذب متطرقاً للخبر : «ومن الأسباب المقتضية للكذب ، وهي سابقة على جميع ما تقدم : الجهل بطبائع الأحوال في العمران . فان كل حادث من الحوادث ـ ذاتاً كان أو فعلاً ـ لا بد من طبيعة تخصه في ذاته ، وفيما يعرض له من أحواله ، فاذا كان السامع عارفاً بطبائع الحوادث والأحوال في الوجود ، ومقتضياتها ، أعانه ذلك ، في تمحيص الخبر ، على تمييز صدقها من كذبها ، وهو سابق على التمحيص بتعديل الرواة ، ولا يرجع الى تعديل الرواة ، حتى يعلم أن ذلك الخبر في نفسه ، ممكن أو ممتنع . وأما اذا كان مستحيلاً ، فلا فائدة للنظر في التعديل والتجريح . ولقد عدَّ أهل النظر ، من المطاعن في الخبر ، استحالة مدلول اللفظ ، وتأويله بما لا يقبله العقل . وإنما كان التعديل والتجريح ، هو المعتبر في صحة الأخبار الشرعية ، لأن معظمها تكاليف انشائية ، أوجب الشارع العمل بها ،

---

(١) الفتاوى جـ ـ ١ ـ ص ٣٢٢ ـ طبع القاهرة ١٣٢٦ هـ .

حتى حصل الظن بصدقها . وسبيل صحة الظن ، الثقة بالرواة ، بالعدالة والضبط .

أما الأخبار عن الواقعات ، فلا بد في صدقها وصحتها ، من اعتبار المطابقة ، فلذلك وجب أن ينظر في إمكانِ وقوعه ، وصار فيها ذلك ، أهم من التعديل ومقدماً عليه . إذ فائدة الانشاء مقتبسة منه فقط وفائدة الخبر منه ، ومن الخارج بالمطابقة . . . وهذا قانون في تمييز الحق من الباطل ، في الأخبار بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه . وهذا هو غرض الكتاب الأول من تأليفنا . . . . وكأن هذا علم مستقل بنفسه ، فانه ذو موضوع : ـ وهو العمران البشري والاجتماع الانساني . وذو مسائل : ـ وهي بيان ما يلحقه من العوارض والاحوال لذاته واحدة بعد أخرى . وهذا شأن كل علم من العلوم وضعيا كان أم عقلياً»[1] .

إن من يفهم سنن علم الاجتماع والنفس ، في الدعاية للصناعة والتجارة ، يمكن له أن يقوم بأعمال ، تجعل الناس يبذلون أموالهم ، ويقبلون على شراء السلع ولدى الناس بالفطرة او السليقة البدائية ، من يقوم بهذا العمل من الباعة المتجولين . ولكن الأجهزة المتخصصة على المستويات العليا ، والتي تدرك الأمور بدقة في جميع جوانبها ، تقوم بأعمال ، يُظن أنها من عالم الخيال . كذلك علم النفس الاجتماعي الحربي

---

(١) المقدمة : ص ـ ٣٧ ـ .

الدعائـي ، وكذلك علـم النفس الاجتماعـي العقائـدي الفكري ، وهو ما يسمى بالايديولوجيات . إن مجتمعاً معيناً في الثقافة والوعي ، قد لا يتأثر بنوع معين من الدعاية ، بينما يؤ ثر ذلك في مجتمع آخر .

إن حماية مجتمع ما ، في الحرب والاقتصـاد والعقيدة ، ليس خاضعاً للمصادفة ، ولأمـور اعتبـاطية ، وإنمـا يخضـع لموازين دقيقة ، مما بالأنفس من الأفكار ، التي يمكن أن يُجْرِيَ عليها الاختصاصيون التعديلات المطلوبة كماً وكيفاً ، ضمن نطاق زمن محدد ، بناء على خبراتٍ سابقة ، من سنّة الأولين أو المعاصرين . كل ذلك علم ، وكل ذلك سنن ، يمكن معرفتها والسيطرة عليها ، وتصحيح الأخطاء فيها ، ومسابقة الزمن في ذلك .

ولكن لن يتمكن من ذلك عقل مرْعُوبٌ ، لا علـم له بأحداث العالم ، ولا يعرف من أين تأتي المصائب ، ولا كيف تدفع ، ولا كيف تُعْطَى المناعاتُ للمجتمعات ، ضد الأخطار الفكرية ، لحماية المجتمع ، فضلاً عن أن ينشيء أجهزة لمراقبة الانحرافات وتصحيح الاخطاء ، على أساس السنن والقواعد التي تخضع لها المجتمعات .

العقل والسنن في القرآن

يَشْغَلُ العقلُ والسنَّةُ ، مكاناً بارزاً في القرآن ، مقصوداً لا عرضاً . حيث تجد الحديث عنهما مبثوثاً في الكتاب الكريم . سواء في النظر إلى مظاهر الطبيعة ، أو في الاعتبار من الأمم الخالية ، وذلك حين يعالج القرآن مشكلة الانسان - أو بالتعبير القرآني - موضوع الهداية والضلال ، المتعلق بحياة الانسان .

أما الحديث عن السنَّة ، فقد سبق أن ذكرنا طرفاً صالحاً منها ، ولا سيما سنن المجتمعات ، وهي آيات الأنفس التي ستظهر في المستقبل :

«سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» فصلت - ٥٣ - . وأن ظهور هذه الآيات ، الآفاقية والأنفسية ، سيكون سبباً لِبَيَانِ أنَّ ما نَزَلَ منْ عِنْدِ الله هُوَ الحَقُّ : «وَيَرَىٰ الذين أُوْتُوا العِلْمَ ، الذي أُنْزِلَ إليكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الحَقّ ، وَيهدي إلى صراطِ العَزِيْزِ الحَمِيْدِ» سبأ - ٦ - . وهذا الموضوع ، موضوع السنَّة ، ربما يمكن تَقَبُّلُهُ بدونِ صعوبةٍ كبيرة . إلا أن المشكلة ، مشكلة العقل ، وما يعترض له من الركود والعطالة ، عن أداء وظيفته ، او ارتباطه الوظيفي بسنن الكون ، هذه الوظيفة ، وظيفة التسخير .

ولقد اعتنى القرآن الكريم ، عناية بالغة ، واستنهض الهمم ، حتى لا يفقد العقلُ مَضَاءَهُ وقُوَّتَهُ ، في إدراكه لسنن الحوادث والاعتبار بها . واعتبرَ الذين عطَّلوا قلوبهم كالانعام بل هم أضل .

والعطالة ، التي تصيب العقلَ عند الانسان ، لَهَا مَصْدَرٌ أسَاسِيّ ، وهذا المصدر له بعد ذلك أعراض أخرى تدل عليه .

والمصدر الأسَاسِي للعطالة : العقيدةُ العَبَثِيَةُ في الوجود والكون ؛ اعتقاد العبث واللعب في الوجود . يقول تعالى في هذا : **«وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين»** **الدخان - ٣٨ -** . وقوله تعالى : **«أفحسبتم أنما خلقناكم عَبَثاً»** **المؤمنون - ١١٥ -** .

ان العقيدة العبثية في الكون هي ، عدم رؤية النظام ، وعدم رؤية السنن ، وعلاقة الطاقة المفكرة الانسانية بسنن الكون . وهذا هو ظن العبثية في الوجود . إن الذي لا يرى هذه العلاقة ، وهذا الارتباط ، لا يمكن أن يقدر المسؤولية الدنيوية ، ولا المسؤولية الأخروية ، اي لا يقدر المسؤولية الاجتماعية ، ولا المسؤولية الفردية - كما سبق - أنْ شَرَحْنَا ذلك .

ان هذه العقيدة العبثية ، توارثناها على مر القرون ، إن لم تكن باسمها فبِمُحْتَوَاهَا ، وتغلغلت هذه العقيدة في النفوس ، وشملت القِمَّة والقدمين . ومهما تفاوتت هذه

العقيدة في الرسوخ ، الا انها استقرت بشكل فعّال ، وساهمت في شلل الفكر والعمل ، في العالم الاسلامي . وهذا الشلل في الفكر ، الذي أشرنا اليه في إغلاق باب الاجتهاد ، انما هو جنين ، ووليد لهذه الآفة ، التي نتحدث عنها الآن ، وهي : عدم رؤ ية علاقة الطاقة الفكرية في الانسان ، بسنن الكون . وظن الفوضى ، وعدم الخضوع للسنن ، في أحداث الكون .

وما دامت هذه العلاقة غير ثابتة ، وغير موجودة ، وغير معترف بها ، فلا جدوى من إعمال العقل والفكر .

فهذه الآفة التي تسللت إلى الفكر الاسلامي ، دون اسم معين ، أو باسم تعظيم السلف ، وتعظيم السلف ، وتعظيم القدرة الإلهية ، التي لا تدع للبشر مجالاً للعمل . هذه الآفة ، وَلَدَتْ بَعْدَ ذلك أَجِنَّتَهَا ، التي نمت وترعرعت ، وصار لها أَحْفادٌ وذرية . إذ ما دام الأمرِ يسير على غير سُنَنٍ يُمْكِنُ أنْ نتبعها ، فلا جدوى من إعمال الفكر لكشف حل ، وتغيير واقع .

والقرآن الكريم ، يعدد الآفات التي تتولد عن العقيدة العبثية في الوجود . ونذكر منها خمسة :

١ ـ الغفلة .
٢ ـ الإعراض .
٣ ـ التكذيب .
٤ ـ الهوى .
٥ ـ تقليد الآباء .

١ ـ آفة الغفلة :

قال الله تعالى : «ان الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، والذين هم عن آياتنا غَافِلُونَ أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون» ـ يونس ـ ٧ .

وقال تعالى : «سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ، وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غَافِلِينَ ، والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة ، حبطت أعمالهم هل يُجْزَوْن إلا ما كانوا يعملون» ـ الأعراف ـ ١٤٧ .

وقال تعالى : «لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغَافِلُونَ» الأعراف ـ ١٧٩ ـ .

٢ ـ آفة الإِعْراض عن آيات الله وسننه :

يقول الله تعالى في ذلك : «وكأي من آية في السموات والأرض ، يمرون عليها وهم عنها مُعْرِضُونَ» يوسف ١٠٥

«وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون» ـ الأنبياء ـ ٣٢ .

«بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم مُعْرِضُونَ» ـ المؤمنون ـ ٧١ .

وسبب هذا الاعراض ، عدم رؤية العلاقة بين طاقة الفكر وسنن الكون ، هذه العلاقة التي يسميها الله التسخير .

٣ ـ آفة التكذيب وافتراء الكذب :

قال الله تعالى : «ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كَذَّبَ بآياته» ـ الانعام ـ ٢١ .

«وإن يُكَذِّبوكَ فقد كَذَّبَ الذين من قبلهم» فاطر ـ ٢٥ ـ

«ولقد كَذَّب الذين من قبلهم فكيف كان نكير» الملك ـ ١٨ .

«بلى قد جاءتك آياتي فَكَذَّبْتَ بها واستكبرت» الزمر ـ ٥٩ .

«بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، ولما يأتهم تأويله ، كذلك كَذَّبَ الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين» يونس ـ ٣٩ .

«ويقولون على الله الكَذِبَ وهم يعلمون» آل عمران ـ ٧٥ . «فانظر كيف يفترون على الله الكَذِبَ وكفى به إثماً مبيناً» النساء ـ ٥٠ . «فمن أظلم ممن افترى على الله كَذِباً ليضل الناس بغير علم» الأنعام ـ ٤٤ .

«إن الله لا يهدي من هو كَاذِبٌ كفار» الزمر ـ ٣ .

في هذه الآيات يبين الله :

١ ـ ان التكذيب ظلم . . .

٢ ـ وهو شيمة الأقوام السابقين أيضاً .

٣ ـ وأن للتكذيب عاقبة . . .

٤ ـ وله ارتباط بالاستكبار .

٥ ـ ويكون بما لم يحط به الانسان علماً . . .

٦ ـ ويكون أحياناً عن علم وتعمد .

٧ ـ التكذيب قد يكون للإضلال بغير علم . .

٨ ـ والكاذب لا يهتدي إلى الحق .

التكذيب ، مثل الاستكبار والإعراض والغفلة ، ينشأ عن مفهوم بالنفس ، لأن التكذيب مما بالقوم ، وليس مما بالأنفس ، وانما ينتج مما بالأنفس ، فوراء الكذب ، أمر متعلق بالنفس من المفاهيم والأفكار والمعتقدات ، ينتج عنه الكذب والتكذيب . ولا يتغير تكذيب القوم ، او كذبهم ، حتى يغير القوم ما بأنفسهم من دوافع التكذيب المستقرة في نفوسهم .

ونحن إذا نظرنا الى التكذيب ، ينبغي أن ننظر إليه على أساس أن له سنناً متعلقة بالنفس ، يمكن أن يحدث لكل من تكونت لديه تلك النظرات . فالمشكلة هنا دقيقة ، وذلك أن هذه السنة سنّة بشرية غير خاصة بقوم معينين ، وإنما هي عامة لكل الناس الذين يحملون أفكاراً معينة . ويكون التكذيب مطابقاً لما في النفس من الأفكار ، قلّةً وكثرة ، قوةً وضعفاً .

وعلينا أن ننظر بشيء من برود الأعصاب ، دون أن يصيبنا الدوار من أن هذه الصفات ، صفات الكافرين ، فكيف تنطبق على المسلمين ؟!

وعلينا أن نخاف من المفاهيم التي يولد منها الكذب والتكذيب ، أكثر من خوفنا من الكذب والتكذيب . لأن خوفنا من الكذب والتكذيب ، لا يردُّنا عن الوقوع فيهما ،

رغماً عنا ، اذا كان ما بأنفسنا ما يتولد عنه الكذب والتكذيب . وما المصائب التي تنزل بالمسلمين إلا لأنهم يكذبون بكثير من آيات الله ، ويعرضون عنها ، ولا يعرفون ارتباط هذه المصائب ـ التي تنزل على الأقوام المسلمين ـ مما بأنفسهم من الأفكار الخاطئة ، التي تحدث هذه العلل .

وآيات الله تعالى ، تكون في الكتاب ، وفي الآفاق وفي الأنفس . وكل الذين لا يفهمون آيات الله ، وإن كانت في حد ذاتها واضحة ، معرّضون للتكذيب بها «**بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه**» . وضربنا لذلك مثلا حين شرحنا قول الرسول صلى الله عليه وسلم في ذهاب العلم ، برغم وجود الكتاب بين الناس دون أن يغني عنهم شيئاً ، كما تفقد آيات الكتاب مفعولها عند الذين فقدوا العلم بها ، كذلك فإنَّ آياتِ الآفاق وآيات الأَنْفُسِ تَفْقِدُ مَفْعُوْلَهَا أيضاً ، عند الذين فقدوا العلم بها . بل إن آيات الآفاق والأنفس ، لم نتعلم بعد قِراءتَها ولا طريقة فَهْمِهَا ، فلذا يسهل علينا جداً التكذيب بها ، بل نظن أن هذا التكذيب الذي نكذب به ، يرضى عنه الله سبحانه وتعالى ونخدم به دينه ، ونحصنه من الضياع .

وفي الواقع، ان من عرف قراءةآيات الآفاق والأنفس، وعرف كيف يتعامل معها ، يدرك أن لهذه الآيات الآفاقية والأنفسيَّة قُوَّةَ آيات الكتاب في الدلالة على الحق، كما يقول محمد اقبال : بل إن هذه الآيات الآفاقية والأنفسية هي التي تشهد بصدق آيات الكتاب . والقرآن الكريم يطلب منا أن

نطلب علماً خارج القرآن ، وذلك بالسير والنظر في الأرض ، إلى آيات الله المودعة في الآفاق والأنفس . فآيات الآفَاقِ والأَنْفُسِ من القرآن، من حيث أن القرآن يأمر بالنظر اليها ، ولكن مكان طلبها ليس في القرآن ، وإنما في الكون . ومن فقد ملكة العلم ، لا يعود يستفيد من آيات الكتاب وإن كانت واضحة بينة . فالقرآن يأمر بإعمال العقل ، والاجتهاد في الفهم والنظر ، ومع ذلك أغلق المسلمون باب الاجتهاد على أنفسهم . ولا أَهْتَمُّ كثيراً بوجودِ رجالٍ هُمْ أَهْلٌ للاجتهاد أم لا ، وإنما أَهْتَمُّ بِمَا آلت إليه هذه الأمة ، حتى لم يعد لديها قدرة على الفهم ، ففقدت النمو وتوقفت عن الحركة ، وأخذت في التقهقر ، حين أحلَّت التقليد محل الاجتهاد .

والغرض من هذا ، أن نستفيد من الماضي ، لننزع عنه هالة القدسية العمياء، التي تخفي نقائصه . ومثل هذا النظر جعل محمد إقبال يحجب الثقة ، عن إنتاج المسلمين في وقت ضعفهم ، كذلك سنذكر نظراً جيداً للأستاذ سيد قطب أيضاً فيما بعد في هذا الموضوع .

اننا هنا نقف على عتبة التيه ، الذي يعيش فيه المسلمون في كل مكان .

إن المرض عام شامل مطبق ، كما تعم الرطوبة في الشتاء كل مكان . كذلك العالم الاسلامي، أنَّى ذهبت تجد هناك الرعب من إعمال الفكر والعقل ، كأن مصيبة المصائب ، في أن يبدأ الانسان في التفكير والفهم باستقلال ـ مع أن فلاحهم

بإعادة وظيفة العقل ـ ولو خالف من خالف ، من القرون الماضية ، ما دامت آيات الله في الكتاب والآفاق والأنفس معه . ولكن نحن لم نعد نتعامل مع آيات الكتاب المسطور (القرآن) ، ولا مع آيات الآفاق التي هي (كتاب الله المنشور) ، إنما نتعامل مع إنتاج المرعوبين ، الذين تدور أعينهم خوفاً من التبصر . وبدون التبصر تفقد الحياة التي أرادها الاسلام للبشر قيمتها : **«قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة ، أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين»** يوسف ـ ١٠٨ ـ .

في التنظيم والتخطيط :

إنَّ مَرَضَ المسلمين ، ليس في عدم وجود المُنَظَّماتِ والمخططات ، بل في جمودِ العقلِ والفكرِ ، فان كان لا بُدَّ من منظماتٍ ومخططاتٍ ، فليكن التنظيم والتخطيط ، في سبيل رفع الآصارِ والأغلالِ عن القلوب المُقفلة . إن التنظيم والتخطيط ليسا في حد ذاتهما هَدَفاً ، بل هما أداةٌ ووسيلة ، قد تُساعِدُ عَلى التخلُّصِ من الآصارِ والأغلالِ ، وقد تُثَبِّتُهَا ، أو تَزيدُهَا ، أو تستبدلها بأثْقَلَ منها . وما لم ندرك هذا بوضوح فسنظلُّ ندور في التيهِ . وسنظلُّ نحاول أنْ نُعَالِجَ بَعْضَ الأعراض والذراري للمشكلة الأساسية : وهي انفكاك جَوْهَر الإنسان عن وظيفته التي خلقه الله من أجلها. سنظل نعالج الاعراض ، بينما تظل أُمُّ الامراض . وأبوها يعشش ويفرخ ، دون أن يمسه أحد بشيء من النكش أو الهز . ومن يحاول أن

يقول : إن المرض هناك فسينظر إليه بريبة ، إن لم يُعلن عليه الحرب ، وأنه اتبع غير سبيل المؤمنين .

إن هذا الجمودَ ، نَوْعٌ فظيعٌ من الجُحُود بآيات الله ، مستتر في الأعماق . إن المشكلة من عند النفس «**وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» النحل ـ ٣٣** ـ ان هذا التخوف من الفكر وإعمال الفكر ، والهجمات التي تشن على من يريد أن يتبصر ، سلاح له فعَّاليةٌ في مجتمع كسيح الفِكْرِ . فلهذا لا نَزَالُ نَرَىٰ الأَقْلامَ في رُعْبٍ ، حين الكتابة في هذا الموضوع ، خوفاً من الهجمات التي يشنها الآبائيون .

إن الذين طال عيشهم في الظلام ، يؤذيهم النور ويجرح أبصارهم ، ولكن من تمسك بنور الله وسننه ، وكان حاذقاً ، في ربط الحقائق بعضها ببعض ، وبيان حقائق الكتاب المضيعة المهملة ، سيكون له شَرَفُ أذانِ الفَجْرِ ، في لَيْلِ الشتاء الطويل الذي عشنا فيه . وسيجيء هناك الحق ويزهق الباطل .

وأعيد وأكرر ، إن العالم الاسلامي لم يَخْلُ منْ هادٍ وداعٍ ، ولم ينقطع فيه الفكر على الاطلاق ، ولكن ظل هؤلاء أفراداً قلائل ، تنبذهم الأمواج المتلاطمة ، من الجمود الذي جحد الحركة الفكرية التي أطلقها القرآن ، وأطلع بها على العالم عصرا جديدا .

وقد سبق أن أشرنا ، الى شيء من ذلك الذي كان يعامل به أصحاب الفكر ، ولا يزال يعامل به الى الآن ، من

الغَمْـزِ واللمْـــزِ ، والتشـــكيك والاتهـــام ، ما بـــين صريح وَمُسْتَتِـرٍ ، ومتـردد ومقـدام . ومـن تذوق شيئـاً من تراثهـم لا يكون أخذ ملكةَ العِلم ، ولبَّ الفَهْم ، وإنما يكون حَوَّلَ تقليده ، من تقليد متخلف ، إلى تقليد أرفع قليلا في غالـب الأحيان ، دون أن يمسك بناصية العلم .

ان التخوف من الفكر ، قد يحمي المتحَصِّنَ به يوماً ما ، ولكن لن يحفظه إلى الأبد ، بل سيأتي اليوم الذي يحـدث فيه الطوفان الذي يجرف الأخضر واليابس .

٤ ـ آفة اتباع الهوى :

هذه الآفة من ذرية الآفـة الكبـرى ، إذ حـين يذهـب العلم يَبْرُزُ الهَوَى ليقودَ . وَيُلْمَحُ ذلك من الآيات التي تذكر الذين يتبعون أهواءهم ، قال تعالى :

«ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله» القصص ـ ٥٠ ـ.

وقال تعالى : «**بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم**» **الروم ـ ٢٩ ـ**، وقال تعـالى : «**أولئـك الـذين طبـع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم» محمد ـ ١٦** . وقال تعـالى : «**وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغـير علـم» الأنعـام ـ ١١٩** . وقـال تعالى : «**أفمن كان على بينة من ربه ، كمن زين له سوء عمله ، واتبعوا أهواءهم» . محمد ـ ١٤** .

والانسان حين لا يهتدي بسنن الله ، ولا يهتدي بالعلم والهدى الـذي جاء من عنـد الله ، يميل به هواه ، لأنـه فقـد

الميزان ، فصار سهلاً عليه أن يَمِيْلَ مع هَوَاهُ حيثُ لا يخشى سنَّةً ولا عِلْماً . فكيف يخشاهما ! . . . وهو لم يشعر بقوانينهما في الحياة ، وأسلوب كشفهما للباطل ! . . . فلذا نجد أنَّ ضيق نظره . والمحدودية في إدراكه ، يسهلان عليه اتباع الظنون وما تهواه نفسه ، دون أن يخشى نكيراً .

٥ ـ آفة اتباع الآباء :

إنَّ الذين يفقدون السنن والقوانين ، في أحداث الكون وحوادث البشر ، يستبدلون تقاليد الآباء بالسنن ! . . . ولتقاليد الآباء ، سلطان قوي يأخذ بمخانق البشر . وسلطان الآباء ، يجب أن يَقِفَ عِنْدَ حَدٍّ معين لا يتجاوزه ، وإلا كان وَبَالاً ومصيبة .

إن تُرَاثَ الآباءِ له أهميةٌ بالغة إذا استفيد منه ، إذ أنه يكون سبباً في تفادي إعادة الأخطاء ، والاستفادة مما كسبوه من تجارب وخبرات خلال القرون . علينا أن لا نعرض عنها ، وإلا دفعنا ثمن ما تعبوا فيه مرة أخرى ، والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين .

ولكن إنْ تجاوز الأمر الاستفادة من العلم الذي حصلوه ، إلى أن يصيروا هم العلم والسنَّة ، وهم قانون الله الذي لا يتغير ولا يتبدل ، فهنا يتحول ما كان عليه الآباء الى أحجار الرَّحى المدلاة من الأعناق التي تعيق الحركة وتتعب النفوس وترهِقُ الأجساد ، ويتحول إلى الآصار والأغلال : «إنهم أَلْفَوْا آباءهم ضالين ، فهم على آثارهم يهرعون» الصافات ـ ٦٩ ـ .

وأول ما يتبادر إلى الذهن عند الاطلاع على القرآن ، هو إدانة اتباع الآباء في عمومه ، أكثر من مدح اتباع الآباء ، لأن إحلال الآباء محل آيات الله وسننه ، أمر جذاب شديد الاغراء . ولهذا فالتحذير من اتباع الآباء ، هو الظاهر في القرآن ، وهو أول ما يُبَادِرُ المطلعَ عليه .

وللاستفادة مما كان عليه الآباء ، ينبغي أن يخضع ما كان عليه الآباءُ للعلم والهدى ، ويُجْرَىٰ عليه التصحيحُ المطلوب دائماً .

وكذلك علينا أن لا نَمَلَّ ولا نَكِلَّ ، من بيان ان ما جرى على آباء الأولين ، يمكن أن يجري على آباء الآخرين . فلولا أنه ، يمكن أن يحل الآباء ، محل العلم والقاعدة ، عند المسلمين أيضاً ، لما كان هناك فائدة من سوق الاستنكار على الأمم الماضية اتباعهم لآبائهم . ولو كان المسلمون معصومين ، من أن يتحول آباؤ هم إلى عقبة أمام سنن الله ، وأن يحلُّوا محل الآيات والسنن ، كما حصل لمن قبلهم ، لما ظهرت فائدة ذكر أولئك ، الذين حال بينهم وبين الحق ، اتباعهم لآبائهم ، بالتكرار الذي ورد في القرآن .

يجري على الآباء والأبناء ما يجري على كل البشر ، في وقوعهم في الخطأ وفي اهتدائهم للصواب ، في قربهم من الحق وبعدهم عنه ، يخطئونَ ويصيبون ، لهذا فإن تصحيح ما يمكن أن يقع فيه الآباء من الخطأ ، إنما يكون بمراجعة آرائهم وما كانوا عليه ، واختبار ذلك وامتحانها على أساس

القواعد والسنن .

لهذا على المسلم أيضاً ، أن لا يضع الآباء المسلمين ـ المتقدمين منهم والمتأخرين ـ مكان القواعد والسنن . ومهما أحسنا الظن فيهم ، فانهم ليسوا فوق أن نختبر ما هم عليه ، على أساس الآيات والسنن والعلم والقوانين .

والذين أعلنوا منهم أنهم لم يعودوا أهلاً للفهم والمعرفة ، حين أغلقوا باب الاجتهاد ، وسدوا منافذ الفكر ، وقالوا انطبقت القبور على أهل العلم والمعرفة ، هؤلاء كانوا صريحين أنهم ليسوا أهلاً لأن يُتَّبعوا .

وكان كل من يخطر في باله أنه أهل للعلم والمعرفة ، يشعر بحرج عظيم ، فكأنه أساء للسلف الصالح ، أن يخرج من أخلافهم من يفهم أو يعقل عن الله آياته في الكتاب والآفاق والأنفس . فكأن الأمر الذي اتخذ مسوغاً لهم في هذا الموقف ، أن يبقى السلف الصالح في مكان الصدارة والمنزلة العالية . كأن هذه المنزلة ، لن يستحقوها إلا إذا ظل كل من يأتي بعدهم قزما ، في أسفل سافلين . وكأن نعمة الله على البشر توقفت ، وكأن آيات الله في الآفاق والأنفس توقفت عن الظهور للبشر .

إن الأمراض التي نعيشها في مجال الفكر ، أمراض مميتة ، قاطعة لطريق الحياة . أنا لا أشعر أني قربت اليك بعيدا ، فان ضغط إرهاب القرون الماضية في الفكر ، سيفٌ مسلط على رؤوسنا . وإزالة هذا الكابوس ، لن تتم إلا بجهود عظيمة ، من الدأب في الدرس ، وفتح الأبصار

والبصائر ، والسير في الأرض والنظر الى ما خلق الله ، وكيف بدأ هذا الخلق . وهذه كلها لم نتعود عليها بعد ، بل لا نرى فيها كثيراً من الجدوى ، مهما تكرر النداء بها في آيات القرآن ، وبعث الهمم إليها .

يكفي ما نظرنا فيه إلى أنفسنا بالغرور ، من أننا ورثة علم الأولين والآخرين ! . . . ، وأننا لم نعد في حاجة الى أن نَشُدَّ رَحْلاً لطلب علم ، أو نخصص وقتا لإعمال الفكر ، أو أن يكون في العالم أحد ، يمكن أن يكون مظنة أن يكشف سنة من سنن الله في الكون ، أو يَرَىٰ آية من آياته في الآفاق والأنفس ، سواء كان من أهل الكتاب أو لم يكن . ولنخرج مما وقع فيه غيرنا فيما سبق من الزمان ، من أننا أحباء الله ، ولكن جواب الله لمثل هذا الظن قاطع : «قل فلم يعذبكم بذنوبكم؟ ! . . بل انتم بشر ممن خلق» المائدة ـ ١٨ ـ

وهكذا قص الله علينا نفسية الماضين الجامدين من أهل الكتاب ، ونحن قد دخلنا إلى تلك الأَجْحَارِ ، وعشنا فيها منحنين حتى تقلصت عضلاتنا ، مغمضين ، حتى صار نورُ الفكر يُعْشِيْنَا ، ومع ذلك نزعم كما زعم الأولون ، من أننا : عبادُ الله المصطَفَوْن وأحباؤه المقربون . إننا لم ننظر إلى التاريخ البشري على أساس السنن ، وإنما نظرنا على أساس الخصوصيات والمحسوبيات ، وأن المجد ميراث من غير جد .

كل ذلك لأننا لم نفتح أبصارنا ، ولا نريد أن نبصر . وكأن العذاب بالذنوب لم ينطبق علينا ، وكأننا لسنا من البشر

الذين خلقهم الله ويخضعون لسننه . وكأننا لم نقرأ : «ليس بأمانيكم ولا أمانِيِّ أهلِ الكتاب ، من يعمل سوءاً يُجْزَ بِهِ ، ولا يَجِدْ له من دون الله وليّاً ولا نصيراً» . النساء - ١٢٣ - .

إن مثل هذا الفهم لم يترسخ في أذهاننا وأعماقنا ، وأسلوبُ نَقْدِنَا لَمْ يُخْجِل بَعْدُ غَبَاءَ المسلم ، فهو إلى الآن لا يزال يظن أنه على شيء ، ويحمل النقد على أنه نوع من الفخر بأنه اعتراف ، ولكن لما يَدْخُلِ الايمانُ في القلوبِ بعدُ ، وحين نسمع كلماتِ إقبالٍ في كشف زَيْفِ المسلم ، نظن أنه غَيْرُ جَادٍّ ، وإنما هو يُدَاعِبُ خَواطِرَنَا ، ويُطَيِّبُ نفوسنا ، ويُخَفِّفُ من هواننا ، كتعويضٍ يرفع وَطْأَةَ الانقلابِ على العقبين .

يقول محمد إقبال :

«إن كعبتنا عامرةٌ بأصنامنا ، وإن الكُفْرَ ليضحكُ من إسلامنا . وان شيخنا قامر بالاسلام في عشق الأصنام . واتخذ خيط مِسْبَحَتِهِ من الزُّنار . هو في سفر دائم مع مريديه ، وفي غفلة عن حاجات أمته . الوعاظ والصوفية عبدوا المناصب ، وأضاعوا حرمة الملة البيضاء : واعظنا إلى بيت الصنم ناظر ، ومفتينا بالفتوى يتاجر»[1] .

وقال في هذا أيضاً : «إنك أيها المسلم لا تزال أسيراً للمتزعمين للدين ، والمحتكرين للعلم ، ولا تستمد حياتك من حكمة القرآن رأسا . إن الكتاب الذي هو مصدر حياتك

(١) اقبال . لعبد الوهاب عزام ص ١٢٤ .

ومنبع قوتك ، لا اتصال لك به إلا إذا حضرتك الوفاةُ فَتُقْـرَأُ عليك سورة «يس» لتموت بسهولة . فواعجبا ، لقد أصبـح الكتاب الذي أنزل ليمنحك الحياة والقـوة ، يتلى عليك الآن لتموت براحة وسهولة[1]» .

وربما كان ما أصيب به المسلمون من الجمـود على رأي الآباء ، أقوى من جمود غيرهم من الأقوام . لأن الآباء حلوا محل الآيات ، سواء آيات الكتاب أو آيات الآفاق والأنفس .

والمسلمون من أشد الناس تقديساً لدينهم ، يَسْمُوْنَ به إلى درجة عالية من المثالية . وهذا تقديس حق . إلا أن هذا التقديس كله ، حين تحول إلى الآباء ، حمل معه قوته وعمقه ، فصار التمسك بما عليه الآباء ، وقبوله مع كل علاته ، وإضفاء طابع العصمة ، سبباً في جعل المسلمين أبعد من غيرهم ، في امكان رؤ ية مكان الخطأ في آبائهم الأولين . ويخطر لي كثيراً أن هذا ، هو السبب في بطء التقدم الذي يحرزه المسلمـون ، في رفع مستواهم أمام هذا العالم المتسابق في تنظيم الحياة . بينما الوثنيون ـ كاليابان مثلاً ـ كانوا أقدر على إثبات وجودهم . إنه ربما كان تقديسهم لمواريثهـم الآبـائية ، ليس له من الجـلال والدعم ، مثل الـذي كان للمسلمـين ، وما أقـروه من ذلك بوسائل تربوية وثقافية متشابكة الأطراف . وهذا ما مكَّن قَادَةَ اليابان من التغلب على مشاكل تغييرما بالنفس ، أومكنهم من

---

(١) مجلة الدعوة . العدد ٢١٥ ـ ٢٦ شعبان ١٣٧٤ هـ .

التلاؤم في تسخير الوسائل الجديدة للأهداف القديمة .

وكل التحذير الذي يوجهه القرآن إلى اتباع الآباء ، حمله المسلمون على غيرهم . كأن مشكلة اتباع الآباء ، ليست مشكلة إنسانية ، أوْ أنَّ ضَرَرَهَا لا يمكن أن يلحق المسلمين . فهذه الغفلة عن هذه السنَّة ، وحمل الآيات - التي تحذر من اتباع الآباء على غير بصيرة - على الأمم السابقة ، كل هذا أفقد المسلمين قيمة التحذير من اتباع الآباء . فبقيت الآيات في الكتاب ، ولكن لم ينتفعوا منها بشيء وهذا مثل واضح عن فقدان الكتاب قيمته الاصلاحية حين يعجز البشر عن التفاعل معه . ومن هنا تبرز أهمية إدراك العلاقة ، بين ما بالنفس وآيات الكتاب .

فحين نعلو بآيات الكتاب الى أرفع المستويات ، دون أن نفطن الى الشروط النفسية عند الانسان ، نقع في حيرة ، ويخفى علينا موطنُ المشكلة ، ويتداخلُ الأمرُ . فَيَنْسُبُ من يَنْسُب ، تخلف المسلمين إلى الاسلام ، فَيُصدِّق من لا يعلم ، ويتشكك من لم يتمكن من العلم . وينبري المحامون عن الاسلام في الدفاع عنه ، ولكن لا يخطر لهم ، أن المشكلة في الانسان وليست في المبدأ ، وأن اختلاط المبدأ بالبشر - حيث صار البشر في مكان المبدأ - لا يجعل للنقد والدفاع ، ثمرة مرجوة .

ولو أن مكان المشكلة تحدد بوضوح ، لحصل السعي للتعرف على كيفية تغيير ما بالنفس ، وما ينبغي أن نغيره . فهنا

موطن الداء . ونحن لا نحسن فهم المشكلة ، ولا نخضعها للسنن النفسية وانما نتركها للمُصَادَفَة .

. . . ولقد حرصت في أكثر من مناسبة ، أن أقرب إلى الوعي ؛ كيف يفقد الانسان الاستفادة من آيات الكتاب . وأعود هنا لأذكر مرة أخرى أيضاً ، ما يمكن أن يتهم به ، ما كدنا نقربه الى الوعي ، من أن هذه الآيات تنطبق على المسلمين ، كما تنطبق على غيرهم .

إذ يعترض المعترض على هذا بأن يقول : كَيْفَ لَمْ يُفْهَمْ هذا ؟ وكيف خفي على الأجيال ؟ فهو إن لم يعترض بهذا صراحة ، فانه يَحْمل في طياتِ نفسه بحيث يمنعه من أن يأخذَ هذا النقد مأخذَ الجدّ .

وأكرر الجواب أيضاً ، بأن المشكلة ليست مشكلة الأجيال الماضية وفهمهم ، وإنما مشكلة ضياع الأجيال الحاضرة وعطالتهم ، والسؤال :

«فما بال القرون الأولى» ؟ جوابه **«علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى» طه ـ ٥٢ . «تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون» البقرة ـ ١٣٤ . وهؤلاء قد لا يكونون مؤاخذين عند الله ، وقد يكون مغفوراً لهم ، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك . ثم لم يكن كلهم كذلك ، وانما نحن اتبعنا الذين أخطأوا دون الذين أصابوا .**

والقرآن الكريم يزكّي اتّباعَ الآباء فيما إذا خضع ما عند

الآباء للبرهان ، وعند ذلك يقول القرآن الكريم : **«واتبعتُ ملّة آبائي إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون» يوسف ـ ٣٨ .**

وقال تعالى ، عن الذين يقدمون ما عليه الآباء على الكتاب ـ مهما كانت حجتهم بأنهم يعلمون مالا نعلم ـ قال الله فيهم : **«واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون» ـ البقرة ـ ١٧٠** . فان من لا يقدر على التمييز بين القاعدة والشخص ، يفتح على نفسه باب التيه . والنجاة من هذا التيه ، تكون باخضاع ما عليه الآباء للعقل والقاعدة . وهذا العمل هو الذي يجعل الفائدة من تراث الآباء مضمونة ، مع تفادي ما يمكن أن ينتج عنه من ضرر . وقال الذين يكتفون بما وجدوا عليه آباءهم إزاء دعوة الكتاب لهم :

«واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول ، قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أَوَلَوْ كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون» - المائدة ـ ١٠٤ .

ولخطورة الآبائية يكرر الله أقوالهم فيقول تعالى :

«واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا» الأعراف ـ ٢٨ ، وقال تعالى : «قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا» يونس ـ ٧٨ ، وقال الله تعالى : «أجئتنا لنعبد الله وحده ، ونذر ما كان يعبد آباؤنا» الأعراف ـ ٧٠ .

فاذا نزعنا عن هذه الآيات صفة الخصوصية ، ونظرنا إليها على أنها مواقف تابعة لما بانفس القوم الذين شأنهم هذا ، نعرف كيف تتشابه دوافع النفوس في اتخاذ مواقف متحدة .
فاذا تجاوزنا هذا المستوى من البحث ، ونزلنا إلى مستوى العوام من النساء والرجال ـ في استعبادهم للعادات والتقاليد الخرافية الحديثة منها والقديمة ، في صورة لا مجال فيها لأي فكر أو عقل أو محاكمة البتة ـ نرى ذلك ، أو نسمع كل يوم حين يقولون : (الناس كلهم هكذا) ، وطبعاً كلمة (الناس كلهم هكذا) ، هي الكلمة المقابلة لقوله تعالى : «**بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون**» الشعراء ـ ٤٧ ـ وإن اختلفت العبارات ، فان الدوافع في النفوس تخضع لقاعدة واحدة .

تحدثنا هنا ، عن الآفات التي تحول بين العقل والسنن ، وذكرنا الإعراض والتكذيب والغفلة . واتباع الهوى ، واتباع الآباء . ومنها أيضاً ، الغرور بما عندهم من العلم ، أو الأولاد ، أو الأموال كارتفاع مستوى الدخل ، أو القوى البشرية المستغلة . كل هذه تحول بين الانسان وإدراك الحقيقة ، وتُمَكِّنُهُ من التعامي وتجاهل الحقيقة .

إن هذه الآفات ، كلها ذرية الآفة الأساسية ، آفة ظن أن الله لم يجعل لهذا الكون سننا ، إذا أتبعها الانسان يمكنه أن يستمطر رحمة الله ، وبتجاهلها يتعرض للهلاك .

فالغفلة عن إدراك هذا النظام الرباني المودع في الكون ، يفقد الانسان ميزته الأساسية ، وأمانته التي حمَّله الله إياها ،

والسلطان الذي اعطاه الله تعالى له ، لتسخيرما خلق الله له . ويصير هذا الانسان المكرم في أسفل سافلين ، بل يصير الانسان نفسه مسخراً للذين يعلمون سنن الله .

والانسان حين لا يدرك أن للكون نظاماً ، وللعقل سلطاناً ، يعيش في فوضى . تأتيه النكبات تلو النكبات ، ولا يعرف لها سبباً معقولاً ، ولا يشعر أنه إنما يصيبه ذلك لأنه عطل ما أودع الله فيه من قوى : «**وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» النحل - ٣٣ -** .

وهذا المسلم بعد ذلك ، يتفنن في اختراع أسباب لتفسير الأحداث ، فهو إن لم يعلق السبب بالنجوم ، فلا جناح عليه أن يرى ذلك في الزمان الذي أشرف على نهايته ، وإن تجاوز مشكلة آخر الزمان ، فمشيئة الله تعالى وإرادته جاهزة . فهذه المشيئة هي التي تفعل هذه الأمور التي لا يحبها ، ولا يرى فيها معقولية . وهذا السند ، هو المشجب الأساسي الذي يعلق به المسلمون كل مهازلهم التي يصابون بها . ويجدون بذلك ، نوعاً من الراحة والطمأنينة في رفع المسئولية عن أنفسهم . كما يغريهم بهذا الاتجاه ، ما يُلبسون نظرتهم من تعظيم الله ليثبتوا له حرية الارادة والمشيئة المطلقة . كأن هذه لا تثبت له ، إلا بالتصرف الذي لا معقولية فيه ولا نظام . هذا ، فضلا عن سلب الحكمة عن مشيئة الله تعالى وإرادته . كما وأن نظرتهم هذه ، فيها سلب للقدرة التي منحها اللهّ للبشر ، على تغييرما بأنفسهم وتغيير واقعهم .

إن الخلط العجيب ، بين سلطان الله وما منح الله للبشر ـ من تمكين في توجيه حياتهم ، وعدم رؤ ية المجال الذي أعطي للانسان ـ يبطل النظام الذي أبدعه الله لحياة البشر .

وأحيانا ، يميل المسلم إلى الحطمن قيمة قدرة الانسان ، ليبقي للهّ عظمته . فكأن عجز الانسان ، هو الذي يثبت عظمة اللهّ . لهذا يتخوف من القدرات التي تتفتح أمام الانسان ، ومن الامكانيات التي يظهر فيها سلطانه . ولو أن المسلم تأمل قليلا ، لما شعر بأن زيادة سلطان الانسان ، تقلل من عظمة الله . بل من جلال اللهّ سبحانه وتعالى ، أن يمنح عبده هذه القدرات .

لكن نظرة المسلم في هذا الموضوع ، شابها كثير من الأخلاط على مر العصور ، من جبرية ، ومرجئة ، وقدرية ، ونماذج أخرى من أقطاب وأبدال ، وشخوص محدثة ، أو من هم أقدم قليلا ، يَلْتَجِئُ إليهم عند المصائب . والأمور المدلهمة ، ليفتوا في العقيدة والاجتماع وأمور الدنيا والآخرة .

ان الفوضى الفكرية والعملية ، التي يعيشها المسلمون ، ترشح من هذا المستنقع ، الذي اجتمع فيه ما هب ودب . ومما يتصل بانقطاع الصلة بين العقل والسنن في المجتمع الاسلامي ، وكشاهد على ذلك ، أني كنت منذ قريب ، مع نخبة طيبة من الشباب الذين يُحِبُّوْنَ الاسلامَ جَهْدَ طاقَتِهِم ، ويتألمون لوضع المسلمين . وكانَ البحث في مشكلة المسلمين ، فكأنهم رغبوا أن يسمعوا مني رأياً في هذا الموضوع

فقلت : إن في نفسي شيئاً في هذا الموضوع ، ولكن لا أعرف كيف سأعرضه عليكم بمبرراته ، لذا أشعر أني لست متمكناً من نقله إليكم . وبعد محاولة لتقريبه إليهم ، قلت ما معناه : كأن شيئاً ينقصنا لتغيير هذا الانسان ! ولو أننا كشفناه فانه يساهم في إزالة هذا العجز الذي يتصف به المسلم . فلاحَظْتُ أنَّ أحدهم التَقَطَ في ذَكَاء ما أقصدُ إليه ، ولعله لما يعلم عني من اتجاهٍ ، في أن مشكلة المسلمين يمكن أن تخضع للعلم . قال : هل تعني أن يخضع ذلك لقواعد علم محدد ؟ فقلت بشيء من الشعور بخيبة الأمل ، وبشيء من الاخفاق والخجل ، لعل هذا هو الذي أريد . فكأنه بحركة بسيطة عدل بها من جلسته ، وبنغمة صوتية خفيفة ، أفهمَني أن هذا الأمر ليس كذلك . وشعرت بزهده الشديد ويأسه ، من أن يكون هذا الاتجاه في النظر إلى المشكلة يأتي بشيء له جدوى .

أجدني في أحيان كثيرة في حيرة ـ وإن كان هذا يمكن أن يُرَدَّ إلى عدم تمكني من الموضوع ـ من أمري ، كيف سأقنع الشباب بأسلوب علمي جديد ، بما قاله ابن الوردي قديماً «في ازدياد العلم ارغام العِدا» من أننا إذا زدنا معرفة وخبرة فان هذه الزيادة في المعرفة تزيد من كفاءتنا في أداء أعمالنا أياً كان هذا العمل فكأننا لا نقرُّ أن كيان الانسان المعنوي يتكون من مجموع اللحظات التي امتص فيها المعرفة بشعور منه أودون شعور .

في الواقع إن وضع هذا الأمر تحت إدراك الوعي يساهم في تغيير الموقف . إن هذا الزهد الشديد الذي عندنا في السعي

لطلب المعرفة ، ما هو إلا ذرية هذه الآفة التي نبحثها ، آفة عدم رؤية السنن في نظام الكون ، وعلاقة العقل الانساني بهذه السنن كعلاقة تسخيرية .

وإن ظاهرة الضجر التي عندنا ، في مطالعة موضوع يحتاج إلى جهد فكري في التأمل ، راجع إلى تلك العقيدة ، عن علاقة الانسان بنظام الكون . وما أسرع ما نتهم البحوث الجدية بالتعقيد والاغلاق ، كأن عقولنا لم تعد تتذوق طعم الأغذية الفكرية الجيدة ، لطول ما تعودنا على العلف الذي ذكره إقبال في الأَسْرَارِ والرُّمُوْزِ :

جَوْهَرُ الآسَادِ أَضْحَى خَزَفَا
حِيْنَ صَارَ القُوْتُ هَذا العَلَفَا

ذكر إقبال في هذه القصيدة نماذج من المواعظ التي يتلقاها المسلم ، الذي لم يَعُدْ لَهُ مَهَمَّةٌ في هذه الحياة ، ليعطي له نوعاً من المبرر للوجود أيا كان هذا الوجود . ذكر ذلك إقبال على لسان الكبش الذي ادعى الالهام ، وأنه مرسل كرسول لأولئك الأقوام الذين من عقيدتهم تسخير قوى هذا الكون لشريعة رب العالمين ووضع إقبال عنوان هذه القصيدة : «قِصَّةٌ في معنى أن مسألة نَفْيِ الذات من مخترعات الأُمَمِ المغلوبة لِتُضْعِفَ الأممَ الغالبة بهذِهِ الطريقةِ الخَفِيَّة» .

ونفي الذات وإثبات الذات محور فلسفة إقبال . ويعني بذلك إظهار ما اودع الله في هذا الانسان من قوى ، فهذا إثبات الذات وإهمال تلك هي رموز نفي الذات .

الفِعْلُ وَالانْفِعَالُ

سبق أن ألمحنا إلى أنَّ كثيراً من أعضاءِ الجسمِ تَعْمَلُ آلياً دون تدخل الارادة ، وقلنا كذلك إنَّ الأفكار التي بالنفس تتفاوت في درجة العمق والتغلغل .

وهذه المفاهيم التي تعمقت ، تقوم في كثير من الأحيان بأعمال آلية دون تدخل الفكرِ الواعي عند الانسان . بل يفقد الانسان صوابه وإرادته عند الغضب والانفعال ، أو تضعف إرادته بدرجات متفاوتة . وفي هذه الحالة يتصرف الانسان على أساس دوافعه المتغلغلة ، ويقل تدخل القدرة الواعية أو يكف بالمرة . فلهذا يُوْصَى القاضي أن لا يحكم أثناء غضبه .

إن أصول هذا الموضوع ثابتة لا تنكر ، ولكن فروعه وتطبيقاته متشعبة في نواحي الحياة تشعباً كبيرا . فمثلا قد نرى في الطرقات أشخاصاً يطاردون الأطفال ، لأن الأطفال كشفوا فيهم بعض نواحي الضعف ، كأن ينادونهم بألقاب معينة تثيرهم . إن الأطفال هنا كشفوا ضعفاً في إرادة هذا الانسان ، فيخرجونه من طوره الواعي بسهولة ، إذ اهتدوا إلى النقطة التي تثيره ، أو إلى الزر الذي إن ضغط عليه حدث لدى هؤلاء استجابات معينة . حقاً إن هؤلاء جديرون بالرثاء ، لأن الأطفال يتحكمون بانفعالاتهم .

ولكن يا ترى هل يمكننا أن نرى أننا نحمل في أنفسنا مثل هذه الأزرار ؟ ! إنْ كَشَفَ أَحَدٌ كيفَ يضغطُ عليها يُثِيْرُنَــا أيضاً ؟ وإن لم يكن في مستوى مطاردة الأطفال في الطريق ، ونخرج أيضاً عن طورنا . إن هذه الأزرار موجودة عند كل الناس ولكن لا يستطيع كل واحد أن يضغط ، ولا كل من ضغط يمكن أن يحدث نفس الانفعال . فقد يذهب بعضُ الناس إلى إنسانٍ يريدون إثارتَهُ فَيَذُمُّوْنَ له رأيا ، أو يستخفون من شيء يقدسه حتى تغلي مراجل قلبه ، فيخرجون من التباحثِ إلى التَّهَاتُر والتَّشَاتُم ، وَقَدْ يَنْتَقِلُونَ من استخدامِ اللسانِ إلى استخدامِ الأيدي .

ولكن لنفرض أن هذا الذي أرادَ الآخرون إثارته ، جاءه من يخبره بقصدهم ، فلا شك أنه سيرجعهم مخفقين ، بتماسكه أمام لُعْبَتِهِم حِيْنَ أصبحَ عَلَى وَعْيٍ مِنْ قَصْدِهِم .

وهذه المرتبة من التماسك والنضج ، يمكن أن يصل إليها الانسان بجهده حين تزداد معرفته وتتسع خبرته بالناس والحياة ، فلا يترك لأحد سلطاناً على أعصابه وانفعالاته .

وقد يكون الذين ذهبوا إليه لا يقصدون إثارته ، ومع ذلك يتهاتر الطرفان لان الأزرار المكشوفة تحدث الانفعالات بالضغط عليها ، ولو بغير قصد الاثارة . فكثير من اللقاءات تُجدِب لمثل هذه الحوادث المؤسفة .

فاذا خرجنا من هذه الأمثلة التي يقوم بها الأطفال في الشارع ، ومن الأمثلة التي يقوم بها بعض الأذكياء الخبثاء في

مستوى إثارة شخص معين ، يمكن أن ننتقل إلى مستوى المجتمعات التي تحمل مواريث معينة في فهم الحياة والكون .

إن هذه المجتمعات تنطبق عليها نفس الفكرة في إمكانية الاثارة . فان كان يمكن رؤ ية بعض البسطاء ، فانه يمكن رؤ ية زمرة من الناس دربهم الكبار على التلاعب بالمجتمعات وإثارتها ، ليؤدوا دورهم ، في الوقت المحدد ، في مجتمعاتٍ ما تَزَالُ بَسِيْطَةً لمْ تَبْلُغْ مَرْحَلَةَ النُّضْجِ والرُّشْد . فاذا جاء هذا الوقت ألقى الاخصائيون (فتّيشة) [1] تنفجر تحت أقدام المجتمع فتخرجه عن طوره ، ليضربوه على أثر ذلك ضربا مؤلما ، أو ليظهروه أمام العالم مَسْخَرَةً لا يملك إرادة ، وإنما هو في صورة وحش ، ينبغي أن تُقَيَّدَ حدودُ امكانياته . ويكون هذا سبباً في تبرير ما يقومون به من إجراءات للحد من حرية حركته أو الحجز عليه كالسفهاء . إن العرف يقر الحجر على السفيه ، ولكن العرف لم ينتبه بعد الى إمكانية إبقاء السفيه سفيها ، بل وزيادة سفهه . فاذا تنبه المجتمع إلى ذلك ، قام بعمل يزولُ معه خُبْثُ الاذكياءِ المُدَرَّبينَ للتلاعب بالشعوب. وكان لورانس مثلاً ممتازاً في الانسان المدرب على إثارة عواطف مجتمع في الاتجاه الذي يريده ، لتسخيره .

---

(١) الفتيشة في عامية أهل الشام هي نوع من العاب المفرقعات يلعب بها الصبيان في الاعياد ، ويطلقونها مجازا على تصرفات بعض الاذكياء الخبثاء للايقاع بين الناس والوصول الى أغراضهم .

ولعله من المناسب أن نستأنس هنا بما قاله جمال الدين الأفغاني في خاطراته ، بمناسبة احداث السودان يومذاك : «من أن بريطانيا أخرجت من جرابها ألعوبة (حصار كوردون) ، فأصدرت أوامرها إلى المصانع ، ليباشروا مد سكة حديد من سواكن إلى بربر . . وتزعم أن لاباعث لها على ذلك الا الرغبة في تخليص كوردون إن كان في خطر .

إذا فرضنا هلاكه ـ كما هو الغالب ـ أو خلاصه . فهل تهدم دولة انكلترا طريق الحديد أو تتبرع بها لمصر سخاءً . كلا والله . لا هذا ولا ذاك ، ولكن طريق للاستيلاء على السودان .

قال المخزومي : أتيت يوماً لجمال الدين وكاشفته بقولي : «هذه المقالة نقلتها الى (الخاطرات) حسب إشارتك ، ولكن توقفت عن نقل ما تبقى . لأنني ما رأيت جدوى في نقل حوادث جرت وانقضى أمرها وكاد الناس أن ينسوها ، ولا فائدة من إعادة ذكرها .

سمع لي جمال الدين باصغاء ، ولما انتهيت قال: يا شيخ بني مخزوم ، وعزة الحق : إن ما تراه اليوم من الفضول بذكر حوادث مضت ، وأعمال أتى بها الانكليز في مصر والهند إن مضت أعيانها ، فستأتي أشكالها وأمثالها . فبريتانيا لا تفتر تحدث فتوقاً في البلاد فتدخل من أضيقها فتوسعه ، وترقب أصغر حدث فتجسمه ، وتعمل على شق عصا القوم ، وتقسمهم أحزاباً وتكون نصير المتباغضين . سُنةٌ جَرَتْ عليها

دولةُ بريتانيا ورجالها فلا يحيدون عنها» [1] .

لم يكن هم الأفغاني ذكر الأحداث ، ولكن التنبه إلى السنة التي تتبعها بريطانيا مع الشعوب . ويظهر تألم الأفغاني من عدم فطنة المخزومي إلى هذا القصد . ويعرف الأفغاني أنها إن مضت أعيانها فستأتي أشكالها وأمثالها . وحقاً إن انكلترا أخرجت من جرابها بعد عشرين عاماً من هذا الحدث ، حاوياً آخر في الوقت المناسب ، كما قال مالك بن نبي : «عرف الأوربي كيف يختار السياسة التي تناسب تلك الساعة ، وهو الذي يتمتع بالمقدرة الانتهازية الجبليّة الفطرية ، فعرف لورانس مثلاً - في الساعة التي هددَ فيها (فون أرمين) قناة السويس ١٩١٥م - كيف يثير الثورة العربية المشهورة ، حين دلل ضعف الشيخوخة لدى عجوز ، هو الشريف حسين ، وتملق حفنة من الزعماء الشباب المخمورين بفكرة المملكة العربية» [2] .

إن كتاب (أعمدة الحكمة السبعة) فيه تفاصيل دقيقة ، كيف قام لورانس بالمهمة على أحسن وجه ، وكيف استغل عدا ما أشار إليه مالك ، بَدْوَ الصحراء الذين لا نعرف لهم قيمة ، واختار منهم حرسه الخاص ، مئة من الشبان الأشداء ، كلهم ماتوا في سبيل حماية لورانس ما عدا بضعة نفر منهم . . وقد

---

(١) الخاطرات ص ٢٧٨ طبع دار الفكر بدمشق . ١٩٦٥ م .
(٢) فكرة الافرو آسيوية ص - ١٨ -. طبع القاهرة ١٩٥٧ م .

خاض نيفا وثلاثين معركة في سبيل بريطانيا ، ولكن دون أن تراق قطرة دم بريطاني .

ولا فائدة من ذكر هذه الأحداث إن لم تُحصنّا من الوقوع في أمثالها .

ولن يحصننا إلا تَفَهُّمُ السننِ المسَخَّرَةِ للانسان ، وإلا سنظل مسخرين لمن يعرفونها . ولن نصل إلى السنن ، الا إذا كابدنا دراسة واسعة للاحداث ضمن هدف محدد ، غير مجرد الاطلاع .

والشيء الذي يجب أن نستفيد منه في هذا الموضوع هو ، أن ترك المجتمع دون رفع مستواه يعرضه لأن يبقى في مستوى المعتوهين . قد يكون عَتَهُ بعضِ الأفراد طبيعياً ، مع إمكان تقليل عددهم إلى حد أدنى . ولكنَّ عَتَـهَ المجتمع ليس طبيعيا ، وإنما هو عَتَهٌ من صنع أيديهم : **«وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» النحل ـ٣٣ـ**

إن إدخال سنن هذه القضايا في وعي الانسان ، وإدخال هذه الآليات النفسية إلى مستوى الوعي ، واستبدال هذه الآليات بآليات أخرى ، أمر يستحق انتباهنا . لأن في الامكان غرس الأفكار في مستويات معينة في درجة العمق والآلية .

إن تغيير الشعور واللاشعور صار ممكناً الآن . وقد يعجز الفرد أن يغير شعوره ، أو أن قدرته على ذلك ليست مطلقة ، ولكن المجتمع له القدرة على تغيير ما بنفس أفراده ،

مهما كان ما بالنفس سطحياً أو عميقاً ، لأن هذا علم . وهذا العلم هو موضوع آية البحث في هذا الكتاب .

مثلاً حين يقول أحد زعماء الصين : «إن الذي كان علينا أن نقوم به من توعية للشعب إلى الخطر الذي يحيط به ، لم نقم نحن به ، وإنما قام العدو بهذه التوعية حين صارت قنابله تسقط على الشعب ، وربما إلى الآن الذين لم تصلهم القنابل لم يتوعوا بعد إلى الخطر» .

هذا الزعيم يشعر أنه كان في الامكان نقل هذا الخطر إلى ضمير كل فرد قبل سقوط القنابل ، ولكن لم يقوموا به ، فيشعر بالتقصير إزاء ذلك . لما نشأ مثل هذا الفهم عندهم ، استطاعوا أن ينقذوا شعبهم من أن يكون قصعة ، يتداعى إليها اليابان والروس والأمريكان ، الذين صاروا الآن يفكرون كيف يخطبون وده رغبةً ورهبة .

إن تلقين ضمير الجماهير إزاء الأخطار ، علم يقوم به الاختصاصيون في عالم يعي كيف تسير الأمور .

إن لا مبالاة الفلاح بالنظافة ، وما يجلب ذلك من أوبئة ، مشكلة ينبغي أن تعالج ، وأن يعلم من يعالج ، علم تلقين الضمير ، علم تغيير ما بأعماق النفس .

إن كنا نضرب المثل بالنظافة فهذا مثل ، ولكن المشكلة أن يظل الانسان في عالم اللامبالاة في مصيره في هذا العالم ومصيره في الآخرة .

وحين يصبح التلاعب بأفكار المجتمعات وتوجيهها إلى

حيث يراد ، علماً منسقاً له دوائره وعلماؤه ، ومؤسساته ، وحين يؤلف كتاب في مثل هذا الموضوع عنوانه : «اغتصاب ضمير الجماهير» حين يتم كل ذلك ، لا بد أن يصير عند هذه المجتمعات علم آخر تتحصن به ضد هذه التوجيهات وذلك الاغتصاب .

إن مرحلة عطالة عقل الانسان ، وعدم رؤية سنة الله في الكون والبشر ، هي المرحلة الخطيرة . وهذه المشكلة هي التي تُبْرِز لنا يوميا مواليد وذريات من المصائب ، نعتبرها أنها أخطر مرحلة .

إننا دخلنا أخطر مرحلة ، حين أقفلنا العقول منذ زمان بعيد ، هناك كنا نقيم ببطء حول أعناقنا الطوق الحجري الذي سيرهق حياتنا في المستقبل .

إن علم تغيير ما بالنفس وما ينبغي أن نغيره ، والزمن الذي يحتاج إليه إذا استخدمت الامكانيات بكفاءة ، هذا العلم هو الذي يخرجنا من الحيرة التي نعيش فيها .

فان لم يتيسر لنا أن نفهم هذا ، ولم يتيسر لنا من يقدم لنا الحجج الكافية للاقناع في هذا الموضوع ، فسنظل نعيش في عالم لا نشعر أنه يخضع لسنن ، وسنصاب بالعطالة التي تشل نشاطنا .

المنهج والتطبيق

في هذا البحث الذي أعرضه من خلال قوله تعالى «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» ، حاولت أن أبرز جانبين رأيت لهما من الأهمية ما يجعلهما يستحقان هذا الابراز الخاص . وفي الواقع سواء كان في كتاب (مذهب ابن آدم الأول) أو في هذا الكتاب ، لا أقول إني عرضت فيهما شيئا لم أسبق إليه . وإنما حاولت أن ألقي ضوءا خاصا على المواضيع التي أرى لها من الأهمية والأولوية في البحث عن غيرها ، لأني أعلم أن القارىء المسلم العادي قد يمر بهذه المواضيع ولكن لا يشعر بما لها من الأهمية . فحين تمر هذه المواضيع من خلال بحوث متشابهة في نظره ، لا يستطيع أن يعطيها من الأهمية ما تستحق ، فلهذا أريد أن أجعل عند بعض هذه النقاط التي وردت في مؤلفات أهل الثقة محطة توقف وتأمل .

ولقد كان بعض الذين كنت أتحدث اليهم يشعرون بشيء من الريبة والدهشة، حين استشهد بأقوال الثقات التي تدعم وجهة النظر هذه ، وكأن لسان حالهم يقول : لم نفهم منهم هذا الذي تقوله .

وهذا بالذات ما قصدته من إبراز هذه النقاط في أضواء خاصة . والجانبان اللذان حاولت إبرازهما في هذا البحث :

١ ـ جانب فصل القاعدة عن التطبيق .
٢ ـ جانب تعميم السنة .

١ ـ جانب فصل القاعدة عن التطبيق :

إن التطبيق قد يكون قريباً من القاعدة أو بعيداً عنها بصور متفاوتة ، فالتطبيق قد يساعد على فهم القاعدة ، ولكن القاعدة بحد ذاتها لها من قوة السُنَّةِ ما يجعلها تتصف بقوله تعالى «ولن تجد لسنة الله تبديلا» أما التطبيقات فتتفاوت كثيرا . وبعبارة أخرى : التفريق بين النظرية والتاريخ ، على اعتبار أن النظرية هي القاعدة والتاريخ هو التطبيق .

وبعبارة ثالثة أيضاً التفريق بين الاسلام والمسلمين ، فالاسلام سُنَّة وقاعدة ، والمسلمون تطبيق وتاريخ . وهم مثال على القاعدة ، ليس لهم من الحصانة ما يجعلهم يحتلون محل القاعدة . فلهذا علينا أن نفرق بين هذين الأمرين في مجال تصدينا لبحث مشكلة تخلف المسلمين . ولا أقصد من ذلك أن المثال والتطبيق لا قيمة لهما في هذا ، بل قد تستنبط القاعدة من الأمثلة ولكن كثيراً ما نضطر أن نقدم القاعدة ضمن أمثلة ولا سيما في أول الأمر . ولكن القاعدة لها من القوة أن تشمل أمثلة لا تعد ولا تحصى . ولهذا حاولت أن أفصل بين الاسلام والمسلمين ، أو بين الاسلام ديناً مُنَزَّلاً ، وبين تاريخ المسلمين على مر العصور ، بحيث لا نظن أن تاريخ أعمال المسلمين هو

الاسلام ، الذي له الحصانة والمناعة الذاتية الموهوبة له من الله تعالى .

هذا الذي كنت أقصد إليه حين حاولت أن أرد المسلم إلى القاعدة الاسلامية ، بصرف النظر عن موقف الملايين خلال المئات من السنين .

وهذا الموضوع لم يكن خافياً على الكتاب الكبار ، ولا أنهم لم يتعرضوا له . ولكن ربما لم يبرزوه في مؤلف خاص ، ولا حاولوا أن يمسكوا المسلم ، ويفتحوا له عينه ليقطروا له ، إذ كثيراً ما يعجز المسلم عن فهم الموضوع ، إن لم يقم الكاتب بعملية رفع الجفن ووضع القطرة في العين .

وهنا استشهد بكلمة في هذا الموضوع للأستاذ سيد قطب الذي له من المكانة عند الشباب الاسلامي قلَّ أن توفرت لغيره من الكتاب . قال رحمه الله رحمة واسعة ، في التعقيب الاخير من تعقيباته على غزوة أحد ، في تفسير آل عمران : « . . . وهناك حقيقة أخيرة نتعلمها من التعقيب القرآني على مواقف الجماعة المسلمة ، التي صاحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم والتي تمثل أكرم رجال هذه الامة على الله ، وهي حقيقة نافعة لنا في طريقنا إلى استئناف حياة اسلامية بعون الله .

إن منهج الله ثابت وقيمه وموازينه ثابتة . والبشر يبعدون أو يقربون من هذا المنهج ، ويخطئون ويصيبون في قواعد التصور وقواعد التطبيق والسلوك ، ولكن ليس شيء من أخطائهم محسوباً على المنهج ، ولا مغيراً لقيمه وموازينه

الثابتة .

وحين يخطىء البشر في التصور أو السلوك ، فانه يصفهم بالخطأ ، وحين ينحرفون عنه فانه يصفهم بالانحراف ، ولا يتغاضى عن خطئهم ـ مهما تكن منازلهم وأقدارهم ـ ولا ينحرف هو ليجاري انحرافهم .

ونتعلم نحن من هذا ، أن تبرئة الأشخاص لا تساوي تشويه المنهج ، وأنه من الخير للأمة الاسلامية أن تبقى مبادىء منهجها سليمة ناصعة قاطعة . وأن يوصف المخطئون المنحرفون عنها بالوصف الذي يستحقونه ـ أيّاً كانوا ـ وألا تبرر أخطاؤهم وانحرافاتهم أبداً بتحريف المنهج وتبديل قيمه وموازينه ، فهذا التحريف والتبديل أخطر على الاسلام من وصف كبار الشخصيات المسلمة بالخطأ أو الانحراف . . . فالمنهج أكبر وأبقى من الاشخاص ، والواقع التاريخي للاسلام ليس هو كل فعل وكل وضع صنعه المسلمون في تاريخهم . وإنما هو كل وضع وكل فعل صنعوه موافقا تمام الموافقة للمنهج ومبادئه وقيمه الثابتة . . .

وإلا فهو خطأ أو انحراف لا يحسب على الاسلام وعلى تاريخ الاسلام ، إنما يحسب على أصحابه وحدهم ، ويوصف أصحابه بالوصف الذي يستحقونه من خطأ أو انحراف أو خروج على الاسلام . . . إن تاريخ الاسلام ليس هو تاريخ المسلمين ولو كانوا مسلمين بالاسم أو باللسان ، إن تاريخ الاسلام هو تاريخ التطبيق الحقيقي للاسلام في تصورات

الناس وسلوكهم ، وفي أوضاع حياتهم ، ونظام مجتمعاتهم[1]. فالاسلام محور ثابت تدور حوله حياة الناس في إطار ثابت ، فاذا هم خرجوا من هذا الاطار أو إذا هم تركوا ذلك المحور بتاتاً فما للاسلام وما لهم يومئذ ؟ وما لتصرفاتهم وأعمالهم تحسب على الاسلام أو يفسر بها الاسلام ؟ بل ما لهم يوصفون بأنهم مسلمون إذا خرجوا على منهج الاسلام وأبَوا تطبيقه في حياتهم ؟ وهم إنما كانوا مسلمين لأنهم يطبقون هذا المنهج في حياتهم لا لأن أسماءهم أسماء مسلمين ولا لأنهم يقولون بأفواههم أنهم مسلمون .

وهذا ما أراد الله سبحانه أن يعلمه للامة المسلمة . وهو يكشف أخطاء الجماعة المسلمة ، ويسجل عليها النقص والضعف ثم يرحمها بعد ذلك ويَعْفُو عنها وَيُعْفِيْهَا من جَرَائِرِ النقص والضعف في حسابه وإن يكن اذاقها جرائر هذا النقص والضعف في ساحة الابتلاء . . . »[2] .

هذا العرض الذي قدمه سيد لسنَّة فصْل المبدأ عن التطبيق ، لضمان سلامة المبدأ ، عرض دقيق ، وواضح وضوحاً تاماً . إلا أن القارىء العادي لا يفهم منه إلا النموذج

---

(١) ان مصطلح تاريخ الاسلام ليس دقيقا في بيان المراد لان الاسلام ليس له تاريخ المعنى الذي يطلق به كلمة التاريخ لى المسلمين لان التاريخ هو سلسلة التغيرات . والاسلام هو مجموعة السنن الثابتة .

(٢) الجزء الرابع من تفسير الظلال ص ١٦٨ ـ ١٦٩ .

الذي تعوده من تنزيه الاسلام والسمو به إلى مرتبة عالية من القداسة .

وليس هذا مراد الأستاذ سيد ، وإنما مراده أن يفرق المسلم حين ينظر الى تاريخ المسلمين ، بين المبدأ الاسلامي وتطبيقه ، وألاّ يصير المَسْلَكُ الذي سَلَكَهُ المسلمون ، طاغيا على المبدأ الاسلامي بحيث يصبح هذا التاريخ هو الاسلام ، ونقف منه موقف من يظن أن كشف الخطأ في هذا التطبيق هو كشف لخطأ الاسلام . وبدون هذا التفريق تصير هذه الأخطاء دِيْناً نضطر أن نتمسك به ، وَيُعْجِزُنا تقديسها عن كشف حقيقة المبدأ الاسلامي .

رحم الله الاستاذ سيداً . . . إنه بعمله هذا فتح باباً إلى حل المشكلة ، وسهَّل لنا تناول البحث ، ووضع هذه العلامة مَعْلَماً على الطريق . وعلى المسلمين الذين يهتمون بالمشكلة الاسلامية ، أن يتخذوا هذه المكتشفات التي انتهى اليها الاستاذ منطلقاً ليكملوا ما انتهى إليه . إلا أنه ينبغي أن نعرف أن الدخول إلى هذا الباب الذي فتحه ، مهمة شاقة عسيرة ، تحتاج إلى خبرة عظيمة .

وهنا اشعر بالحاجة الى التذكير بسنة من السنن . هذه السنّة هي : أن إمكان تقرير السنّة والاعتراف بصحتها نظرياً أكثر سهولة ويسرا ـ مع الأسف ـ من القدرة على تطبيقها تطبيقا عمليا وتعميمها . وقد سبق أن ذكرنا رأي ابن تيمية في هذا .

إن هذه القاعدة التي ذكرها الأستاذ سيد هي من هذا

القبيل ، يسهل التسليم بها كقاعدة نظرية ، ولكن صعبٌ جداً تطبيقها ، بل إن من سيقوم بتطبيق هذه القاعدة سيجد أن التسليم بها لم يقرب من حل المشكلة الاَّ قليلاً . لأن الأستاذ سيدا رحمه الله حين يقول :

«ونتعلم من هذا أن تبرئة الأشخاص لا تساوي تشويه المنهج ، وأنه من الخير للأمة المسلمة أن تبقى مبادىء منهجها سليمة ناصعة قاطعة ، وأن يوصف المخطئون والمنحرفون عنها بالوصف الذي يستحقونه ـ أيا كانوا ـ والاَّ تُبَرَّرَ أخطاؤهم وانحرافاتُهم أبداً بتحريف المنهج وتبديل قِيَمِهِ وموازينه ، فهذا التحريف والتبديل أَخْطَرُ على الاسلام من وصف كبار الشخصيات المسلمة بالخطأ والانحراف .» .

هذه القاعدة ، سهل التسليم بها نظريا . . . ولكنْ مَنْ هؤلاء الذين وَصَفَهُمْ سيد رحمه الله بكبار الشخصيات المسلمة ؟

هل نستطيع أن ندخل بالتفاصيل ونذكر بعض الأشخاص بالاسماء ؟ هنا نجد ان هذه القاعدة والتسليم بها ، لم يحل المشكلة الأَجزءاً يسيراً جدا ، لأن ذكر الاسماء وتعيين الشخصيات الكبيرة المخطئة ، يدعو إلى أن تحمرَّ له الأَحْدَاقُ وتنتفخ له الأَوْدَاجُ . لأن الدخول في هذا الموضوع يَفْقِدُ فيهِ العقلُ السَّيْطَرَةَ ، وتبدأُ العواطفُ بالعمل .

سهل أن أصف عبد الرحمن بن ملجم بأنه مخطىء سواء كنت سنيا أو شيعيا وكذلك سهل أن أصف معاوية بالخطأ

والانحراف . . . إن كنت شيعياً .

وفي الواقع إن تقديس التاريخ الاسلامي ـ سواء وافق الاسلام أو لم يوافقه ـ له من القداسة والقدرة على إبطال مجال العقل ، وإطلاق العواطف والقبض على مجال الحركة الفكرية ، وذلك عند الذين لم يستبينوا الفرق بين الاسلام ومطبقيه ، مما يبطل محاولات المصلحين في إنقاذ الاسلام ومنهجه من الاخطاء التطبيقية عند المسلمين ، والتي يشعر سيد بضرورة تخليص منهج الاسلام منها وجعل المنهج مسيطراً على التاريخ .

إنَّ ذِكرَ أسماءِ الشخصياتِ الكبيرة التي يشير إليها (سيد) يوقع في مشكلة كبيرة ، ولن يتيسر ولوج هذا الباب إلا بعد غرس منهج العلم الذي يأمر به الاسلام . إن الاسلام لا يعطي العصمة لأحد بعد رسول الله ، ولكننا معشر المسلمين في الواقع نعطي هذه العصمة للرجال . ويصعب علينا أن نرى الشخصية الكبيرة التي نُجِلُّها تُخطِىءُ وتصيب كما يصعب علينا أن نقول : هذا الرأي من قوله خطأ ، وهذا صواب .

كما أننا ـ عمليا ـ لا يمكن أن نتعامل مع الشخصيات الاسلامية الكبيرة إلا على أساس التسليم لهم بكل شيء ، أو رفض كل شيء .

وتحول هذا الاسلوب إلى منهج مقرر يتحدى القواعد النظرية الاسلامية التي يحفظها كل الناس ، مثل ما تحفظ عن الامام مالك قوله : «يؤخذ من قول كل أحد ويرد عليه الاّ

صاحب هذا القبر ، ويشير إلى حجرة النبي صلى الله عليه وسلم» وهذا القول مثل القول الذي يكرره سيد رحمه الله بأسلوب هذا العصر في الكلام الذي سبق أن اقتبسنا منه ، ولكن تطبيقه عمليا دونه خَرْطُ القَتَادِ .

وليس معنى هذا أن بعض المصلحين لا يتجرؤ ون على ذلك ، ولكن الواقع بثقله يتحدى الأفراد المصلحين ، ولن يتيسر لنا الخروج من الخلط بين السنَّة والتاريخ ، إلاَّ إذا تذوقنا أهمية السنَّة ، وطبيعة الصلة بين السنَّة والرجال . فالرجل ليس سنَّة ، وإنما يخضع للسنَّة ، ويسعى لكشفها وتطبيقها . ومهما كان هذا الرجل عظيماً فلن يتجاوز حد الرجل . ثم ليس مما يقلل من قيمة الرجل أن يخطىء ، وليس من شأنه ألا يخطىء ، وكل ابن آدم خطاء . وأي شخص مهما برز في العلم لا يصير معصوماً عن الخطأ . ولكن مع أخطائه يبقى مكانه محفوظاً ، ولا يُقَلِّلُ من قيمته العلمية كونُهُ لم يحط بكل شيء . ولكن حسبه أن يعطي شيئاً جديداً مهما كان يسيراً . وسيحفظ له هذا الكشف مكانه ومقامه مهما سَبَقَهُ مَنْ جَاءَ بعده . وهذا هو التقدير الصحيح للرجال ، لا أن نرفعهم فوق ما يستحقون ، ونعطي لهم العصمة التي لم يعطها لهم الله ورسوله وأولو العِلْمِ القائمون بالقسط .

وفي الواقع إنَّ تذوق العلم وحده ، هو الذي يستطيع أن يعودنا الاحترامَ الصحيح لأهل العلم ، بحيث نصل معه إلى درجة نُقَدِّرُ فيها العلم الذي عندهم ، ونغفر لهم الخطأ الذي

وقعوا فيه دون أن يصير خطأهم غِلاً في أعناقنا . نأخذ ما أصابوا فيه ، ونتجنبُ ما أخطأوا فيه دون أن نجعل خَطَأَهُم تحقيراً لهم ، ودون أنْ نجعل صوابَهم عِصْمَةً لهُم . فهذا الموقف هو الذي يُنَزِّهُ اخْتِرَامَ أهلِ العِلْمِ مِنَ التَّحَوُّلِ إلى نوعٍ من الأَوْثَان ضرره أكثر من نفعه . وبهذا لايتحول الأحبار والرهبان إلى أرباب .

ليس هدفُنا إدانَةَ التاريخ الاسلامي ولا تجريح شخصياته ، كما أن ما نقلناه عن الاستاذ سيد ليس هدفه أنْ يُزَلْزِلَ ثقةَ الشبابِ بالشخصياتِ الاسلاميةِ الكبيرة ، ولا أن ينزع الثقة من تطبيقِ الاسلامِ على مَرِّ العصور . ولكنَّ هَدَفَهُ أنْ يصبح للمسلم قدرةً على إخضاع التاريخ للمنهج بحيث يستفيد منه الفائدة المرجوة ، ويتجنب الخطأ الذي فيه لأن التاريخ يحتوي على هذا وذاك .

إن موقف المسلمين الآن من التاريخ ليس موقفا صحيحاً ، لأنه لا قدرة لنا على تجنب أخطائه والاستفادة من صوابه . وعلينا أن نميز المنحرف والمخطىء ، من الأشخاص ، وأن نعرف من الآراء ما هو مخطىء ومنحرف ليصير التاريخ دافعا ومحركا إلى الامام لا غلاً على العنق يقيد العقل ويمنع من الحركة . والأستاذ سيد شعر بهذه الحاجة ، حاجة الموقف الصحيح من الرجال ومن التاريخ ، وشعر أيضا بأهمية هذا الموقف . وربما هذا الشعور هو الذي جعله يكتب عن عثمان رضي الله عنه عبارة لم يتعود المسلمون أن يسمعوا

مثلها من كاتب يُعَد من أهل السنة والجماعة . قال : «إنه لمن الصعب أن نتهم روح الاسلام في نفس عثمان ، ولكن من الصعب كذلك أن نعفيه من الخطأ الذي هو خطأ المصادفة السيئة في ولايته الخلافة ، وهو شيخ موهون تحيط به حاشية سوء من أمية ذات الفطرة المشؤومة» [1] . ثم يقول بعد قليل عن الفتنة التي قامت : «ولكن لا بد لمن ينظر إلى الأمور بعين الاسلام ، ويستشعر الأمور بروح الاسلام ، أن يقرر أن تلك الثورة في عمومها أقرب إلى روح الاسلام واتجاهه ، من موقف عثمان أو بالأدق من موقف مروان ومن ورائه بنو أمية الذين لم تخالط روح هذا الدين نفوسهم في يوم من الأيام» .

ويرى أيضاً أن لو وليها علي بعد الشيخين قبل أن تنمو البذرة الأموية . . . لو كان هذا لتغير وجه التاريخ الاسلامي وسار في طريق غير الذي سار فيه .

إن المشكلة في الواقع ، إنما في تغيير النظر إلى التاريخ من خلال السنن ، وليس أن يحل التاريخ محل السنن . فحين يصير هذا النظر ثقافة في الأمة ، أعني ملكة تفهم الأمور على أساسها ، عندها نترك النزاع في خطأ رجل واحد أو أسرة واحدة . لا يكفي أن نحمل جريرة المشكلة لرجل واحد أو أسرة واحدة ، إذ المشكلة أعم من هذا .

---

(١) العدالة الاجتماعية ص ١٩١ ، وما بعدها الطبعة الرابعة مطبعة عيسى البابي الحلبي .

وكما أنه ليس دقيقا أن نحمل هذه التبعية رجلا أو أسرة في الماضي ، كذلك الحال اليوم . إن تعليق هذا الموضوع في رجل أو في مجموعة حلت محل أسرة ، لا يقل في عدم دقته عن السابق .

إن المشكلة مشكلة نظر إلى التاريخ ، الى الواقع البشري وما وراء هذا الواقع من الدوافع التي توجه الأحداث .

إننا حين نكتسب النظرة الصحيحة إلى التاريخ ، ووضعه في مكانه ، لا يزعجنا خطأ رجل أياً كان هذا الرجل ، لأن لدينا ما يعصمنا من وضع الرجل مكان السنن . إن هذا الفهم ليس يعصمنا من خطئه فقط ، بل يجعلنا نستفيد من صوابه ، أيّما فائدة ، متخذين الصواب الذي انتهى إليه منطلقاً لنا ، لا مكانا للوقوف عنده أو التراجع عنه . وهذا الموقف هو الذي سيجعلنا نستفيد من صواب ما عند (سيد) وغير سيد . وليس عيبا على سيد أن يخطىء في بعض ما يكتب ، أو يقصر ، ولكن عيبا علينا أن لا نستفيد من صوابه والوصول به إلى المدى الذي كان يريد الوصول إليه [1] .

وأن هذا ينطبق على ما أكتب وعلى من سيكتب في المستقبل .

---

(١) وكذلك الحال بالنسبة ، لابن تيمية ، وابن خلدون والافغاني و . . الخ .

إن اكتساب هذا النظر إلى التاريخ يجعلنا نقدر ما عند الآخرين من النظريات الصائبة ، سواء كانوا مسلمين أتقياء أو غير أتقياء ، من الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا . بل يجعلنا نستفيد من صواب أي كاتب ، سواء كان مؤمناً أم غير مؤمن ، من غير أن يختلط علينا صوابه بكفره . وإن عدم التمييز في هذا الموضوع ، يحرمنا خيراً كثيراً . عدا أنه يجعلنا نقف مواقف تدعو إلى الأسى من المحب ، والسخرية من المبغض ، حين نردُّ بعض الحقائق العلمية لعدم إيمان أصحابها نفعل هذا دون أن نشعر .

إن النظر الصحيح إلى التاريخ يفيدنا من جانبين كبيرين : فهو يحررنا من عقدة الخوف من كشف الخطأ في تاريخ المسلمين . كما يحررنا من عقدة الخوف من كشف صواب في تاريخ الآخرين .

إن عدم بخس الناس أشياءهم مبدأ قرآني . كما أن العدل وأن لا يجرمنا شنآن قوم على ألا نعدل مبدأ قرآني . كما أن قوله تعالى :

«يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين» النساء ـ ١٣٥ . مبدأ قرآني لنعدل في الانتصاف من أنفسنا وممن نحب هذا الحب الساذج لا حب المثل الاعلى الذي يشرف الانسان ويرفع من قدره ويجعله يقدر الأصدقاء والأعداء ، بميزان العدل لا بميزان الهوى المبني على النظرات القصيرة .

وفي الختام ليس الهدف تجريح شخصيات أو تقديسها ، وإنما الهدف اكتساب موقف سليم بين الحق والرجل . وأن يبقى الحق حقاً والرجل رجلاً . لأن الحق حق فقط ، ولكن الرجل يمكن أن يكون محقا كما يمكن أن يكون مبطلا ، وبينهما درجات كثيرة . لهذا يعرف الرجال بالحق وليس العكس .

وهذا الموقف لا يكتسبه الانسان بأن تقول له ميز بين الحق والرجل ، ولكن يكتسبه من الممارسة الدائبة والسعي المتواصل .

٢ ـ جانب تعميم السنة :

وأما الجانب الثاني وهو جانب تعميم السنة : أي أن السنن الاجتماعية التي تنطبق على البشر تعم المسلمين أيضا . بل أكثر من هذا ، أن سنة الله في التفاعل مع المبادىءتنطبق على الاسلام أيضاً ، مع ما للاسلام من ميزة ذاتية كما يقول الاستاذ سيد قطب رحمه الله في كتابه (هذا الدين) :

«هناك حقيقة أولية بسيطة . . . ولكنها مع بساطتها كثيراً ما تنسى أو لا تدرك ابتداء فينشأ عن نسيانها أو عدم إدراكها خطأ جسيم في النظر الى هذا الدين :

حقيقته الذاتية وواقعه التاريخي ، حاضره ومستقبله كذلك . إن البعض ينتظر من هذا الدين ـ ما دام منزلا من عند الله ـ أن يعمل في حياة البشر بطريقة سحرية خارقة غامضة

الأسباب ودون أي اعتبار لطبيعة البشر ، ولطاقاتهم الفطرية ولواقعهم المادي في أية مرحلة من مراحل نموهم ، وفي أية بيئة من بيئاتهم . وحين يرون أنه يعمل بهذه الطريقة ، وحين يرون أن الطاقة البشرية المحدودة ، والواقع المادي للحياة الانسانية يتفاعلان معه ، فيتأثران به - في فترات - تأثرا واضحاً ، على حين أنهما في فترات أخرى يؤثران تأثيراً مضاداً لاتجاهه ، فتقعد بالناس شهواتهم وأطماعهم وضعفهم ونقصهم ، دون تلبية هتاف هذا الدين ، أو الاتجاه معه في طريقه . . .

حين يرون هذا فانهم يصابون بخيبة أمل لم يكونوا يتوقعونها - ما دام هذا الدين منزلا من عند الله - أو يصابون بخلخلة في ثقتهم بجدية المنهج الديني للحياة وواقعيته ، أو يصابون بالشك في الدين اطلاقا .

وهذه السلسلة من الأخطاء تنشأ كلها من خطأ واحد أساسي هو :

عدم ادراك هذا الدين وطريقته أو نسيان هذه الحقيقة الأولية البسيطة . . . » ص ٣ - ٤ .

هذه النقط التي أتوقف عندها من كتابات سيد وأريد إبرازها وأعتبرها من أحسن ما كتب ، ربما لا يشاركني بعض الطيبين من الشباب ويرون الأولى التوقف إزاء هذه الأفكار ، لا لفهم حقيقة ما يرمي إليه واتخاذها منطلقاً ، وإنما ترددا في صحتها أو جدواها ، بل ربما يرون فيها بعض الخطورة حيث

تفتح باباً تدخل منه رياحٌ باردة . يشعرون بهذه النسمات الباردة باحساس دقيق مرهف صنعته القرون الماضية ، حين أغلقوا الأبواب على انفسهم وشمعوها . وأرى أن الصفحة الأولى من كتاب هذا الدين من أروع ما تركه سيد رحمه الله . فعند الحديث عن طبيعة هذا الدين وطريقة عمله في حياة البشر تبرز الحقائق التالية :

١ ـ حقيقة أولية وبسيطة .

٢ ـ ومع بساطتها كثيراً ما تنسى .

٣ ـ ونسيانها ينشأ عنه خطأ جسيم .

ثم يقول : وحين يذكّرون بهذه الحقيقة :

١ ـ فانهم يصابون بخيبة أمل لم يكونوا يتوقعونها .

٢ ـ أو يصابون بخلخلة في ثقتهم بجدية المنهج الديني .

٣ ـ أو يصابون بالشك في الدين إطلاقاً .

ثم هذه السلسلة من الأخطاء نتيجة خطأ واحد ، وهو عدم إدراك طبيعة هذا الدين أو نسيانها .

ولو أن إنساناً خصص حياته كلها لبحث هذه النقاط وكشف مصادرها التاريخية وبواعثها النفسية وآثارها الاجتماعية ، وقرب ذلك للأفهام وفصلها تفصيلاً حتى يبلغ بها درجة البلاغ المبين ، لكانت هذه الحياة ، حياة مباركة طيبة .

كم من حقائق قرآنية أولية بسيطة على مسمع كل أحد في قارعة الطريق ! ولكن مع هذا كله لا ينتبه إليها منتبه ! وكم من

المصائب التي تسد علينا منافذ الحياة تنشأ عن هذا النسيان وعدم الانتباه ! وكم من الآلاف المؤلفة من الشباب يصابون بخيبة أمل ، أو بخلخلة في ثقتهم بجدية المنهج الديني حين يكشفون الحقيقة ، لأنهم يعيشون على الوهم متقوقعين ! ثم كم من الشباب يصابون بالشك في الدين إطلاقاً ، ويظهر عليهم آثار ذلك بأساليب مختلفة ، لكل موسم ما يناسبه ، وليس آخرها أصحاب الشعور الطويلة الذين يملأون الأسواق . . . إنه المظهر الصارخ للفراغ من الحقيقة . . . إنه الامتلاء بالأوهام . أجل إنها مشكلة مجتمع ، مشكلة جيل ضائع متخم بالأوهام ، ومجاعة من إدراك سنة الحياة .

دليل الأفكار

على حقيقته .

ما بالنفس يتفاوت في الرسوخ ١٠٥ ـ١٢٦

(١٠٥) كثير مما بالنفس يعمل آلياً حين يكون راسخاً (١٠٨) كشف سنن التعامل مع النفس يجعل تغيير ما بها سهلا (١١٢) أهمية توحيد الثقافة والفكر لايجاد توازن المجتمع (١١٤) أعمار المجتمعات والدول ورأي ابن خلدون (وهل هي حتمية ؟ (١٢٠) الجهل بكيفية التغيير وبما نغيره يجعلنا ننتظر المهدي (١٢٢) الفكرة المتعمقة في النفس مصدر للاخلاق (١٢٣) السلوك والاخلاق يحميهما العلم .

كيف تلقى السنن القبول ١٢٧ ـ١٦١

(١٢٧) يجب ان تجد سنن التغيير مستنداً لها في كتاب الله لتلقى القبول عند المسلمين (١٢٩) الحاح القرآن على الاعتبار بسنة الأولين ومعنى سنة الأولين (١٣٦) موقف من يدرك سنن الاحداث يختلف عن موقف من يجهلها (١٣٩) المسلمون اليوم عالة مستكبرون (١٤١) قاعدة هامة تبين المقصود من ذهاب العلم (١٤٦) مكان المشكلة ليس في الاسلام وانما في عقل المسلم الذي فقد وظيفته (١٤٨) مشكلة أخرى كيف جهل السابقون هذا !! (١٥٦) في ظلال افلا تعقلون (١٥٧) ادراك السنن يقود الى الموضوعية والى حماية المجتمعات .

العقل والسنن في القرآن ١٦٣ ـ ١٨٧

(١٦٣) العقيدة العبثية ومعناها واخطارها والآفات التي تتولد عنها (١٦٦) آفة الغفلة (١٦٦) آفة الاعراض عن آيات

الله وسننه (١٦٥) آفة التكذيب (١٦٨) التكذيب يتولد من مفاهيم خاطئة (١٦٩) خوف المسلمين من إعمال العقل ، واغلاق باب الاجتهاد (١٧١) في التنظيم والتخطيط(١٧٣) آفة اتباع الهوى (١٧٤) آفة اتباع الآباء (١٧٨) كلمات لإقبال في كشف زيف المسلم . (١٧٩) سبب بطء تقدم المسلمين بالنسبة لغيرهم . (١٨٠) نتائج اختلاط المبدأ بالاشخاص . (١٨١) أثر فكرة «ما بال القرون الاولى» . (١٨٣) مصدر قولهم «الناس كلهم هكذا» . (١٨٤) الغرور بالقوى البشرية قد يحول دون ادراك الحقيقة . (١٨٥) المبررات التي يغطي بها المسلمون عجزهم . (١٨٦) زهد المسلم في قيمة السنن كوسيلة لرفع العجز . (١٨٧) الضجر من دراسة موضوع يحتاج الى جهد فكري .

الفعل والانفعال ١٨٨ ـ ١٩٥

(١٨٨) العمل الآلي لبعض اعضاء الجسم ، نقل هذا الامر الى مستوى الفكر . (١٨٩) قدرة البشر في السيطرة على الانفعالات . (١٨٩) النضج الفكري ، يقلل من سيطرة الانفعالات على الانسان . (١٩٠) استخدام المسيطرين على الامم لهذه القاعدة فيما يخدم أغراضهم . (١٩١) مثال لجمال الدين الافغاني يوضح ما سبق . (١٩٢) لورانس نموذج على ما ذكرناه . (١٩٣) الخلاص من سيطرة الانفعالات ، ومن مستغليها انما يكون بفهم السنن .

كتب للمؤلف

مذهب ابن آدم الاول : او
(مشكلة العنف في العمل الاسلامي)

يبرز المؤلف في هذا البحث الاسلوب الذي زكاه الله في موقف ابن آدم الاول من اول نزاع حدث في مطلع البشرية . . ليكون هذا الاسلوب المزكى من قبل الله نبراساً للبشرية في خط سيرهاالطويل . ويهدف إلى إيجاد أسلوب آخر لحل مشكلات البناء . وهو وإن كان يوجه الكلام الى الاسلاميين ليدلهم على الطريق ، إلا أنه لم يقصد الاقتصار عليهم ؛ بل يريد ان يضع امام ضمير الآخرين هذا الاسلوب في العمل ليكون موضع تأملهم . ويبين ان على المسلمين من أجل استئناف الحياة الاسلامية ان يقوموا بعملية البلاغ المبين ، وان يؤدوا واجباتهم بصرف النظر عن الحق الذي لهم .

الإنسان : حين يكون كلاً وحين يكون عدلاً

ينطلق المؤلف من شرح قوله تعالى : «وضرب الله مثلاً رجلين احدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه اينما يوجهه لا يأت بخير . هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم» .

ويهدف الى بيان ان البشر يمكنهم باستخدام سنن تغيير

النفس والمجتمع ، رفع أو خفض مستوى الافراد والمجتمعات . ويشرح فكرة «الفعالية» ، ويبين أن أهم شروطها .

- ان نبحث اسباب الأحداث ، ونعترف بجهد الانسان فيها .

- ان يتحرك الانسان بين حدّي الرجاء والخوف ، من أجل خير يجلبه أو شر يدفعه . .

العمل

قدرة وإرادة

إذا توفرت للعمل الارادة الجازمة والقدرة التامة مع استيفاء شروطه وانتفاء موانعه ، وجب وجود الفعل ضرورة ، وتم حصول العمل بإذن الله تعالى .

إن لدى المسلمين من الارادة والقدرة المادية ما يكفيهم للاقلاع ، وإنما عوزهم الحقيقي في القدرات الفهمية .

وهذا الكتاب يتناول مشكلة العمل بأسلوب موضوعي على صورة قوانين رياضية :

الارادة الجازمة + القدرة التامة = العمل الناجح .

العقل + المثل الأعلى = الارادة .

العقل + وقائع الكون واحداث التاريخ = القدرة التسخيرية .

حتى يغيروا ما بأنفسهم

ينطلق المؤلف من شرح قوله تعالى : «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» . ويحاول ان يوضح ان اساس مشكلة تخلف المسلمين ، هو جهلهم ان مشكلتهم تخضع لقوانين يمكن كشفها وتسخيرها . . وبالتالي اصبحوا ألعوبة بيد اعدائهم الذين يفرضون ان المشكلات تخضع لقوانين يمكن كشفها وتسخيرها . .

ويبين المؤلف ان الدعوات التي تركت أثرها العميق في تاريخ البشرية ، إنما بدأت تأثيرها على نفس الانسان وفكره فغيرتهما ؛ وان هذا التغيير يخضع لقواعد وقوانين هي سنن الله في النفس والمجتمع التي يرتقي المجتمع او يتخلف بحسبها . . .

فقدان التوازن الاجتماعي

يدرس الكتاب انسان مجتمعنا الذي يتردد بين مبدئه وضغط الواقع . ويبين ان الانفصام الاجتماعي الذي يعانيه مسلم اليوم ، هو الذي يفقده توازنه ويحمله على الانسحاب من المجتمع او الذوبان فيه . وان من الشروط الاساسية لتحقيق التوازن الاجتماعي :

- ان ندخل المجتمع ونحن نعتقد ان لدينا عقيدة تنقذه .
- ان ندخل المجتمع لنغيِّره ، لا لنقلِّده .
- ان نقدم الإيمان بأدلته من عالم الشهادة .

كتب قيِّمة

أولاً ـ أبحاث في سنن النفس والمجتمع

تأليف : الأستاذ جودت سعيد

١ ـ مذهب ابن آدم الأول (مشكلة العنف في العمل الاسلامي) .

٢ ـ الإنسان حين يكون كلاً وحين يكون عدلاً .

٣ ـ حتى يغيروا ما بأنفسهم .

٤ ـ فقدان التوازن الاجتماعي .

٥ ـ العمل قدرة وإرادة .

ثانياً ـ دراسات نفسية وتربوية :

تأليف : الدكتور عبد الحميد الهاشمي

١ ـ الرسول العربي المربي

ثالثاً ـ نظرات في كتاب الله تعالى :

١ ـ قبس من الإعجاز — للأستاذ : هِشام الحمصي .

٢ ـ توجيهات قرآنية — للأستاذ : هشام الحمصي .

٣ ـ أضواء من سورة يسٓ — للأخت : حنان لحام .

٤ ـ أضواء من سورة لقمان — للأخت : حنان لحام .

رابعاً ـ من أخبار الصحابيات :

تأليف : السيدة حنان لحام

١ ـ سمية بنت خياط (الشهيدة الاولى) .

٢ ـ أم سليم بنت ملحان (الزوجة المؤمنة) .

المحتوى

الموضوع	الصفحة

هذا الكتاب

ينطلق المؤلف من شرح قوله تعالى : «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» . ويحاول ان يوضح ان اساس مشكلة تخلف المسلمين ، هو جهلهم ان مشكلتهم تخضع لقوانين يمكن كشفها وتسخيرها .. وبالتالي اصبحوا ألعوبة بيد اعدائهم الذين يفرضون ان المشكلات تخضع لقوانين يمكن كشفها وتسخيرها ..

ويبين المؤلف ان الدعوات التي تركت أثرها العميق في تاريخ البشرية ، إنما بدأت تأثيرها على نفس الانسان وفكره فغيرتها ؛ وان هذا التغيير يخضع لقواعد وقوانين هي سنن الله في النفس والمجتمع التي يرتقي المجتمع او يتخلف بحسبها ...